شقة للإيجار

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: شقة للإيجار
تـأليـــــــف: د. مها سامي
القـطـــــع: 14*20
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنـة النشـر: 2024
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 28157 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 561 - 9

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

شقة للإيجار

مجموعة قصصية

د. مها سامي

اليوم الأول

تم رفع الإعلان في المواقع المختلفة على شبكة المعلومات الدولية، ساعدني في ذلك طبعًا أولادي؛ لأنني من الجيل السابق الذي لم ينشأ على استخدام شبكة المعلومات الدولية، لي حقًا بعض المعاملات، كنتيجة للتطور وتطوير الذات؛ مع ذلك الزائر لحياتنا منذ أكثر من خمس وعشرين عامًا، وبدأت أتعامل مع الإعلان، وتمكنتُ من التواصل مع المتفاعلين معه، وفعلًا بدأت بنات حواء الشابات الجميلات منهن الدارسات، والموظفات، والمغتربات أيضًا بالتواصل، ومعرفة التفاصيل، أو المعاينة، وبدأت أول مجموعة بنات تصل إليَّ، كنَّ خمس مغتربات: ثلاث طالبات، ومغتربتين من محافظاتٍ أخرى مختلفة، وبنت واحدة كانت من القاهرة، ولكن لا تمتلك مسكنًا.

وبدخول تلك البنات إلى حياتي، صارت لي عائلة من جديد تحتاج لرعايتي، وتأخذ اهتمامي، كل واحدة منهن تعاملني على أنني لستُ فقط صاحبة السكن، أو المسئولة عنه ولكن بشكل عفوي

تمامًا، تلقيت منهن المعاملة كأم بديلة، وكان لي مرةً أخرى إحساس الأمومة، والمسئولية في أولادي الجدد اللاتي أهداني إياهم القدر، نتيجة الشقة المؤجرة.

ووقفتُ أتأملُ البيت بعد تعديله، وتتلاحق في ذاكرتي صورةُ كل جزءٍ فيه سابقًا "كيف كان؟ والآن كيف أصبح؟"

كان هُنا بالمدخل ترابيزة أنيقة يعلوها مزهرية من خامة الصيني، منقوشة بنقوش تراثية من تلك المعروفة بـ"السيفر" ثم يظهر باليمين صالون مذَهب أنيق يقابله مماثل له بالجهةِ اليسرى من المدخل، ثم تكوين خاص للبيانو، حيث يظهر أمام شباك كبير نسبيًا يطل على الحديقة كأن البيانو له صومعة خاصة به يحتضنها السلم من الجانبين، تحت السلم يوجد منطقة الخدمات مدخلها من ممر ينتهي بباب المطبخ الرئيسي، يسبقه بشكل متعامد حمام الضيوف.

بين الصالونات ومنطقة البيانو إلى اليمين، حجرة السفرة، وهي صالة كبيرة نسبيًا بها ترابيزة سفرة تضم اثني عشر كرسيًا، وعدد اثنين بوفيه، ودلسوار، ودولاب فضية، ويواجه الباب بالكون

مطل على الحديقة، وإلى اليسار بين منطقة البيانو، والصالون الأيسر حجرتان: حجرة بجوار الصالون، والمكتب، وحجرة المعيشة والمكتبة بجوارها.

وهذا الطابق لم يتغير عن تصميمعليه، كل ما تغير هو الطابق العلوي؛ حيث كان يضم حجرات أبنائي التي كانت تضم أثاث من اختيار كل منهم، طبقا لاحتياجاتهم من سرير ودولاب، ومكتب للدراسة ملحق به مكتبة، كانت حجرات واسعة تطل على الحديقة مما يسر لي تعديل الحجرات الثلاث، وتحويلها إلى ستة حجرات، ويضم هذا الطابق ركنًا؛ لإعداد المشروبات الساخنة، وحمامان يطلان على الحديقة الخلفية، كل واحد منهما في اتجاه يجاور ثلاث من الحجرات، والآخر مع الحجرات الثلاثة الأخرى، ومنطقة لكل ثلاث حجرات للجلوس، عبارة عن شباك مستدير في نهاية ممر الحجرات بين الحمام من جهة، والحجرات من جهة، ويتكون من عدد من أماكن الجلوس المريحة تتوسطها ترابيزة مستديرة.

انتبهتُ من تأملي هذا، وأنا أتفقد حال الفيلا بعد التجديد؛ استعدادًا لبدء مشروعي، دق جرس الباب الرئيسي، وكان أول حضور النزيلات من بنات حواء.

وبدأ البنات بالوصول، وقابلتُ كل واحدةٍ منهن بمفردها أحيانًا مثل الموظفات، كل واحدةٍ منهن وصلت بمفردها، وكذلك الشابة التي لا تملك سكنًا، رغم أنها قاهرية المنشأ بمفردها، ولكن الطالبات الثلاث يمكنني القول إنهم مثلوا الجانب المرح الشقي المشاغب طبعًا؛ نتيجة صغر سنهم، وقد حضرن معًا؛ فكنَّ يمثلن للأسرة الجديدة لمحةً من المستقبل.

في البداية حضرن، واختارت كل منهن حجرتها من حجرات الدور العلوي، أو الشقة المنفصلة المستقلة، والتي لها من داخل الفيلا سلم داخلي؛ حيث أتمكن من متابعة المشروع من داخل سكني بالدور الأرضي الذي يضم: صالة الطعام، والمطبخ الأساسي، والحمام الكبير، وحجرة المعيشة، والمكتب والمكتبة، وحجرة البيانو الذي نال إعجاب بعضهن، وجذب الفتيات أيضًا ثراء مكتبتي الموجودة بحجرة المعيشة التي كانت مكانًا للقائتهن، وأسمارهن دائمًا وهي من جمعتني بهن، وصارت بيننا ألفة، الأم ببناتها كما راعيت بعض الخصوصية لهن ولي، فقد كانت حجرتي كبيرة تضم: حمامًا خاصًا، وأنتريه صغيرًا، ومكتبًا خاصًا لي،

وتعمدتُ تعديل الدور العلوي ليضم مطبخًا مفتوحًا، ومكانًا لمشاهدة التليفزيون كحجرة معيشة كاملة التجهيز، لتناسب عددًا كبيرًا، وعدلت طبعًا الحجرات لتضم كل منها حمامًا خاصًا.

تلك التجهيزات الفاخرة حددت المستوى الاجتماعي للمستأجرات، اعتقدتُ أنني أواجه مشاكل كبيرة معهن، لكن لكل منهن حياتها، ومشاكلها التي عشناها جميعًا معًا لكوننا في سكن واحد.

فعلًا لم يمر وقت طويل بعدما أخذت المجموعة الأولى العنوان في خلال حوالي ساعة تقريبًا، أو أقل شوية، رنَّ جرس الفيلا، فتحت الشغالة، وكان أمامها ثلاث بنات في مقتبل العمر.

"تفضلنَّ.." دخلت الفتيات، وانتظرنني في حجرة المعيشة ونزلت أقابلهن.

كنَّ لطيفات المحيا، يرتدين ملابس الشباب، تسريحاتهن تسريحات شبابية، شكلهم "كاجوال" كما يُوصف في قاموس الشباب الحالي، تعرفت عليهن، وعرفت أنهن يدرسن في الجامعة: طالبة منهن في كلية الطب، وطالبة في كلية الآداب، وطالبة في

كلية الحقوق، ظهرت على وجهي علامات التعجب من اختلاف كلياتهن، لكن فهمت أن اثنتين منهن من نفس المدينة؛ لأنهن من مدينة واحدة، فهم يعرفن بعضهن؛ لأن المدينة صغيرة، وعندما دخلت طالبة كلية الطب إلى الجامعة، كانت بمفردها هنا في المدينة الجامعية، وعندما جاءت طالبة كلية الآداب بدأت طالبة كلية الطب تفيدها بخبرتها، وأن تُعينها بخبرتها في السكن، وما إلى ذلك من معلومات باعتبارها الأقدم في القاهرة، ثم تم التعارف على طالبة كلية الحقوق في المدينة الجامعية، وبدأت صداقتهن تقريبًا مع بعضهن منذ سنة، أو أقل من سنة؛ حيث كان الفصل الدراسي الثاني لم ينتهِ بعد، لكنهن اعترضن على المدينة الجامعية لأسباب تخصهم ما لي علاقةً بها، أو أُبدي رأي فيها، ولكنهن فضلن سكنًا آخر غير المدينة الجامعية.

لم يكن هناك أي اعتراضات، أو اختلافات بيني وبينهن، عَيَّنَ المكان، وقد أعجبهن وفرحن جدًا باتساع حديقة الفيلا، وطبعًا الطالبة الجميلة اللطيفة التي كانت أصغرهن سنًا فرحت جدًا بالمرجيحة، وجريت تجلس عليها، الأمر كان بالنسبة لي مرحًا، ولم يُسبب لي أي إزعاج.

اتفقنا على كل شيءٍ من نظام ومواعيد تسديد الإيجار، وشكرتني الفتيات، وسجلنا عقود الإيجار، وذهبنَّ لإحضار حقائبهن.

ودعتهن عند الباب، وعدتُ لمقعدي الهزاز مرةً أُخرى بأمل استقبالهن غدًا بإذن الله.

في صباح اليوم التالي، حضرن الفتيات، وأمليتُ عليهن بعض الشروط، نظام المواعيد الخاصة بالاستيقاظ، موعد الإفطار، والرجوع ليلًا، وغير مسموح بالتأخير، حيث أنني أحب أن أُحافظ على سمعة المكان، فأنا أعلم أن السن المرح له بعض إشكالياته، ولكن من الواضح أن البنات الثلاثة كنَّ فتيات عائلات محترمة، كنَّ فتيات جيداتٍ جدًا، وحقيقي كنَّ لطافًا يتحلين بالخلق الكريم، وإن كنَّ متحررات بقدرٍ بسيط، وعندما يكون بينهن شيء من التواصل مع بعضهن، ويبدئن بالمرح، كانت أصواتهن عالية، ولكنهن كنَّ ملتزمات بكل القواعد التي أمليتها عليهن من قبل، احترمناها جدًا، ثم توجهن إلى الغرف، سعدن بها وتوجهت إحداهن إليَّ قائلةً: "إحنا ممكن نكون مع بعض؟" طالبة كلية الآداب وطالبة كلية الحقوق، على اعتبار أنهن كليات نظرية، أما طالبة، كلية الطب وهي أكبر منهما سنًا فضلت أن يكون لها غرفة

خاصة، لكثرة كتبها وكثرة مذاكرتها، وكذلك أدوات كلية الطب التي يخاف منها البعض.

بدأ توافد بنات أخريات للفيلا، حيث كان ما زال هناك حجرتان لم يتم تأجيرهما، كل حجرةٍ تحتوي على سريرين، ومجهزة لاستقبال فتاتين في كل حجرة، وهكذا أصبح سكان الفيلا عشرة بنات، والخادمة، والبستاني، وأنا، وبدأت الحياة النشيطة تملأ الفيلا ثانيةً، ولم أعد وحدي في عالمي الخاص.

تمت

(١)

الدموع الحائرة

شردت ثواني في الماضي القريب ناظرة لذلك البرواز على المكتبة وسط دهشة النزيلات الجدد

"يا رباه، يا ميسر كل أمرٍ عسير، نجني من جلدي لنفسي هذا.

ارحمني مما أمرُّ به من شعور الوحدة، وأمر تلك العيون أن تكف عن إهطال سيول دموعها على وجنتي، قتلني الحزن الذي لا أعرف مداه، ولا متى ينتهي احتلاله لنفسي البائسة؟!

ألا يوجد سبيل لجلائه؟

هل سأظلُ أسيرةً لتلك المشاعر الغاضبة؟

يا ربي، كن عوني على الثبات، وكن دعمي على الصبر، فاض الكيلُ وطفح، دمرتني آلامُ النفسِ، رحماك يا رحمن".

هذه الكلمات كانت في الورقة التي سقطت من يد السيدة/ سهى هادي عبد الصبور، جارتي المستأجرة للشقة المجاورة لي التي أملكها، وأؤجرها لها منذ سنتين، كانت نعم المستأجرة!

كانت هادئة لم تتسبب في أي مشكلة أو تعترض على أي شيء، بل قبلت كل شروط عقد الإيجار، واليوم قدمت لي دعوة لتناول الشاي معها في الثامنة مساءً.

ذهبت إليها متأنقةً قليلًا بما يناسب زيارة منزلية، وأنا أحمل معي قالب كيك بالشوكولاته كانت قد تذوقت مثله عندي من قبل أثناء زيارتها لي من مدة طويلة، وكنت أعرف أن اليوم هو يوم ميلادها من تاريخ الميلاد المسجل في العقد طبقًا لبيانات صورة بطاقتها الشخصية.

اعتقدت أن هذا التصرف سيسعدها كاحتفال بعيد ميلادها، وألا تكون وحيدة في مثل هذا اليوم، وخاصةً أنني لم أرَ من يزورها أبدًا، ولا حتى في الأعياد ولا في المواسم المختلفة.

طرقتُ الباب، استقبلتني باسمةً وقدمتُ لها الكيك؛ فاتسعت بسمتها وشكرتني بتهليل كبير، تعجبتُ قليلًا، لِم هذا الشعور الذي انتابها كل هذه الفرحة لأجل قالب كيك؟

ثم جلسنا، تجاذبنا أطراف الحديث قليلًا عن عملي وأولاي، ثم بدأت تتحدث عن ميراثها، ولمن تتركه.

تعجبت، أول مرةٍ تتحدث معي بهذا الشأن، وأفصحتْ لي عن خوفها أن تموت وحيدةً.

هدأتُ من روعها هذا، وحاولتُ مداعبتها؛ فابتسمت وعيناها مليئة بدموع صامتة، حاولت الاستئذان منها للمغادرة ولكنها قالت:

- "استني أنا مجهزة لنا عشاءً خفيفًا، أرجوكِ، اتعشي معايا النهاردة".

قبلت وأثناء العشاء تمازحنا مرحًا من منا تُجيد الطبخ أكثر، وفي النهاية اتفقنا أن نزور ملجأ الأيتام القريب منا كعادتي يوم اليتيم من كل عامٍ، وكانت مرحبة بذلك جدًّا خاصةً أنني

أقنعتها أن هذا حل مناسب للتغلب على الوحدة، لأن هذا لا يكون مجرد يوم في السنة، لا أبدًا، من الممكن أن نساعد الأطفال كأمهات بديلات.

رحبت بالفكرة وبدأنا برفع الأطباق من على السفرة، وقمتُ بإعداد الشاي، في حين هي أنهت غسل الأطباق، وإذا بهاتفها يرن، استأذنت مني للرد.

برهة ونضج الشاي بالغلاية، صببته وتوجهت إليها لتقديمه، فإذا بها جالسةً كالتمثال بلا حراك، ظلت صامتةً ونحن نحتسي الشاي، والحيرة تملأ عينيها، وغابت عنها تلك اللمحة المرحة التي ظهرت على العشاء.

حين هممتُ بالرحيل طلبت مني أن أعاود زيارتها بالصباح ومن حين لآخر لأنها خائفة، ابتسمتُ ووافقتها، وانصرفتُ لشقتي، وكلي حيرة من أمرها.

كيف تبدلت هكذا؟

وماذا جاءها بالمكالمة زاد من خوفها؟!

ثم قرأت قليلًا ونمت حتى الصباح، ولم يفارقني شعوري بالقلق عليها ومنها، يا رب سترك.

توجهتُ لعملي بعد أن أوصيتُ حارس العقار بإرسال زوجته؛ للاطمئنان عليها ربما تحتاج لشيءٍ، ومضى ما يقرب من عشرة أيام على ذلك، وفي يومٍ عند عودتي من العمل؛ استقبلني الحارس.

الحارس: "الحقي يا دكتورة، الست سهى بتنادي عليكِ من الصبح وكل ما نقولها طب اتصلي بالدكتورة دي في شغلها مش هتسمعك ما هي مش هنا، تسكت شوية وترجع تنادي عليكِ، وبالأخير عيطت، وفضلت قاعدة لوحدها بالبلكونة".

انزعجت وطلعت لها وما إن وقع نظرها عليَّ؛ ابتسمت فاقتربتُ منها؛ ربتت على يدي بعطف أمٍّ ولم تنطق؛ فإذا بالورقة تسقط وتسلم الروح لخالقها وسط دهشة البواب وزوجته.

قمنا بما يلزم لغسلها، وأبلغتُ محاميها الذي دقق العقود بيننا من قبل طبقًا لرغبتها الذي صرح لي بعد أن عدنا من دفنها بمقابر عائلتها أنها أوصت بثروتها لملجأ الأيتام الذي زارته معي من قبل، وحرمت كل أهلها من ثروتها لسوء معاملتهم لها، وطمعهم فيها بغير حقٍّ رغم حسن معاملتها لهم سنين طويلة، كما أوصت لي شخصيًّا بكل ما كتبت من قصصٍ، وكتبٍ ومؤلفات، وكذلك صورة لها على سبيكة ذهبية مكتوب على ظهرها: "إلى من جففت دموعي الحائرة".

تمت

(٢)

نمرودة

كنت أسير حول البيت كنوع من الرياضة الصباحية كما أمرني الطبيب، ولاحظتُ وجود سيدة في العقد الخامس من عمرها أنيقةً وراقية المظهر، تسير ذهابًا وإيابًا على الرصيف المقابل للبيت، وجذب انتباهي تعلق بصرها علي الدور العلوي لبيتي، وتكرار ذلك الموقف، ورؤية تلك السيدة الصامتة المترقبة.

مراقبتها لنزيلات البيت أثار قلقي وتوتري، خاصةً عندما أراها تُستر بأشجار الرصيف المقابل لبيتي، وكدتُ أنادي لبواب البيت، والجنايني لحماية الفتيات أثناء خروجهن من البيت، ولكن منعتني نظرتها الحزينة التي تسببت في نزول دموعها ببطءٍ على وجنتيها، وحين تعلق نظرها بالبنات حتى غبنَّ عن النظر،

وابتلعهن الطريق المؤدي لمحطة الأتوبيس، تحركتُ نحوها، ولم تلحظ تقدمي إليها وهي تجفف وجهها؛ لتدفن دموع آلامها بمنديلها الحريري، وبدا عليها التوتر عندما سألتها: "خير يا سيدتي، ماذا بكِ؟ وهل هناك سبب لمتابعة البنات ومراقبة منزلي؟"

ظهرت عليها علامات المفاجأة، ونظرت لي باضطراب قائلةً: "أنا! أبدًا، أبدًا."

وهمت بالابتعاد عني للرحيل، ولكنني أوقفتها بصوتٍ جاد صارم قائلةً: "ليس من حقك مراقبتنا، وإن لم تفصحي لي الآن عن سبب مراقبتك المتكررة، سوف أتصرف بشكل آخر."

التفتت لي والحزن والأسى يعتلي وجهها، وتنهدت قائلةً: "الأمر بسيط لا يستوجب غضبك هذا، فقط كنت أتمنى رؤية ابنتي، فلم أرها منذ عامٍ مضى."

ثم انهارت بالبكاء؛ ربتُ على كتفها، وقلتُ لها: "اهدي، وتفضلي بالبيت، تفضلي لنتحدث بالداخل أفضل."

ترددت في البداية، ومع إصراري تحركت معي لداخل الحديقة، حقًا! أنا كنت في بادئ الأمر متوجسةً منها، خائفة من أن تكون نصابة.

تمالكتُ نفسي متحدثةً إليها: "اصبري حتى تروي لكِ قصتها، وتأكدين من مدى مصداقية الرواية، لا تندفعي مع عاطفة الأنثى، وضعفها تجاه الدموع."

لذلك جلست معها بالحديقة، ناديتُ على الجنايني، وطلبت منه أن يبقي قريبًا، ثم أمرتُ الشغالة بإعداد الشاي لي ولها، وبدأنا الحديث..

سألتها: "من هي ابنتك؟"

السيدة: "ابنتي هي بتول"

وأمام اتساع عيناي، ولمعتهما من التعجب، ابتسمت السيدة ابتسامةً حزينة باهتة.

وتنهدت ثم قالت: "لم تتعجبين؟ إنها لا تُشبهني كثيرًا، معك كل الحق فهي تشبه والدها أكثر مني، أم لأنها حين لمحتني بالخارج، وأنا أحاول الاختباء بين الأشجار لم تلتفت لي؟"

ابتسمتُ وأنا أقول لها: "اشرحي لي من فضلك، لم كنتِ تسرقين النظر لها ولماذا لم تتحدثان؟ وكيف لأم وابنتها لم يتقابلان منذ عامٍ مضى؟ هل هناك مكروهٌ لا قدر الله؟

صمتُ أنتظرُ الإجابة منها، لكنها كانت نجلةً، تضغط بيدها اليمنى على يسراها، وعلامات التردد تغطي وجهها، ونظرتها حائرة، ولكنها قالت بحزن وبصوتٍ يخنقه البكاء: "ابنتي منذ نعومة أظافرها وهي عصبية جدًا، حادة الطباع، وأنا كأم أحاول دائمًا علاج ذلك، وأمتصُ عصبيتها وأحتويها لكنها دائمة الانفعال، تختلفُ معي على أبسطِ الأشياء، ويعلو صوتها، وتتشاجر معي، ومع أخوتها، أو أي شخصٍ يختلف معها بالرأي، أو لا يُنفذ ما ترنو إليه أو تريده، دائمًا تعيش نظرية المؤامرة، ودائمًا تعتقد أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، رغم ذلك كانت

حنونة وفاقدة الثقة بنفسها، وضعيفة الشخصية لحدٍ ما، من السهل أن تؤثر عليها أي صديقةٍ لها، وبالفعل أثرت عليها زميلة لها بالكلية، ومع الأسف كان تأثيرًا غريبًا جدًا، بدأت تتخبط بين حبنا ، أنا وأبيها كابنة لنا، والصورة السيئة التي كانت تحكيها لها صديقتها عن أبويها، تحولت ابنتي لكارهةٍ لنا بشكل ملحوظ في تصرفاتها، وابتعدت عننا أكثر وأصبحت صديقتها تلك هي كل عالمها، ولكنها كانت تعاني من التخبط بين ما أنشأتها عليه من مستوى اجتماعي مرموق يعلو على مستوى صديقتها الاجتماعي.

لدرجة أنها بدأت تتطاول علينا، ولم يقتصر الأمر على اعتراضها على شدة والدها، وأسلوبه القاسي في تربيتهم هي وأخواتها، بل للمشاعر معه ومعي لمجرد أن نوجهها لأمرٍ ما، أو نتحدث معها بشأن ما، حتى أصبحت العلاقة بيننا وبينها جافةً تمامًا، دائمًا تبقى منفردةً لا تشترك معنا بالحديث، أو التواصل كأسرة، وعزفت تمامًا عن مشاركتنا أي شيءٍ، حتى

تخرجت من الجامعة، وكانت متفوقة جدًا وحصلت على تقدير امتياز، وأكملت دراستها العليا والتحقت بوظيفةٍ مرموقة، وما أن تناقش معنا في أي أمرٍ، تُنهي الحوار غاضبةً، وتنسحب إلى حجرتها، وإن راجعتها في ذلك ترد قائلةً: "هكذا أفضل، أنتم تستريحون، وأنا أيضًا."

وبدأت تتسع الفجوة بيننا أكثر، تتطاول بصوتٍ غليظ، وتتشاجر معي أو مع والدها، ثم تبكي بشدةٍ وتعتذر تغاضينا مرات ومرات عن أسلوبها الجاف، وعزلتها عنَّا، وتلاشيها في الاندماج معنا حتى ظننت أن حدثَ لها مكروهًا لا قدر الله، وواجهتها بذلك أكدت لي أنها بخير، وعلمت بعد ذلك أنها تشاجرت مع صديقتها وابتعدتا عن بعضهما، وكان ذلك قد تكرر عدة مرات.

بعد الخصام تنهار وتزداد عصبيتها، وشجارها معنا لأتفه سببٍ، ولاحظت أن الصديقة تلك لم تكن تبادل ابنتي الإخلاص بالصداقة أو حب ابنتي لها وتعلقها بها، وقد نبهت

ابنتي لذلك وأنها تحقد عليها وتُشغلها، لكن ابنتي لم تستجِب لي إلى أن هجرتها تلك الصديقة، بعدها انهارت ابنتي جدًا، ولكنها تعرفت على فتاة أخرى، وتوطدت صداقتهما وتكرر ما سبق باختلاف بسيط، هذه المرة ابنتي لديها بعض الخبرة من جرح سابق من صديقتها، فأصبحت تتوخى الحذر قليلًا في التعامل مع الصديقة الجديدة، ولكن الجفاف بيننا دائمًا، حتى صرتُ أتحدث لنفسي: "كيف أربي أولادي كلهم نفس التربية، وتظهر بتول هكذا لا تعترف بفضل الوالدين؟! لا تهتم إلا بنفسها ولا تكترث لأي شيءٍ للأسرة والعائلة، فهي لا تتعاون مع أختها بمساعدتي بالأعباء المنزلية، لا تعبأ بشيخوخة أبيها، تتعامل معنا في كل المواقف السعيدة أو الحزينة أو الصعبة بكل سطحية، وعلى هامش حياتنا." وزاد الأمر جفافًا، وبعدًا، هجرتها لمنزلنا، وفضلت الاستقلال بحياتها الآن، وهي في عمر الثامن والعشرين، ولم يرزقها الله بزواج، أنا حزينة لفراق ابنتي، وجفافها تجاهنا يا سيدتي، كيف لي أن أتحمل كأم عقوقها؟ وكيف يهدأ قلبي وهو لا يعرف عنها شيئًا، أو عن حياتها

وأمانها؟ أنا لست بمجرمةٍ تتلصص حول بيتك أو نصابة، أنا فقط أم مجروحة يعتصر قلبها، هذا كل ما في الأمر."

قالت ذلك وهي تهم بالرحيل، وعيناها تغرورقتان بدموع اليأسِ.

لم أنطق بكلمةٍ واحدة من صدمتي بما قالت، ولكنني سمعت من طرفٍ واحد، كيف لي أن أصدق؟

تلك البنت الرقيقة، جميلة المحيا الهادئة التي كدنا في البيت نظنها منطوية، أو خجولة لقلة تواصلها مع باقي البنات المستأجرات للحجرات المجاورة لحجرتها.

أنا متأكدة من أنها على خُلق كريم؛ فهي تصلي بانتظام، وتصوم نوافل العام وشهر رمضان، وتتصدق ماديًا، وعينيًا، وودعتنا منذ شهر تقريبًا لتؤدي العمرة، وهي نفس الفتاة التي مرضت منذ عدة أشهر، وذهبتُ معها للطبيب؛ لأنها طلبت مني ذلك بعد تكرار إصابتها بمغص شديد، وظننا أنها الزائدة الدودية، ولكن الطبيب الباطني أكد أنها ليست الزائدة

الدودية، وطلب عرضها على طبيبٍ متخصص لأمراض النساء، وهنا خافت الشابة ولجأت إليَّ باكيةً، وهي تقول: "أنا مرعوبة من كلام الدكتور، هو في إيه؟ ممكن حضرتك تكوني معايا، أنا وصديقتي الحميمة سوف نذهب لطبيبة متخصصة وحضرتك بمثابة أم لي."

وأنا وافقت وتوجهنا للطبيبة التي أكدت أنه مجرد ورم ليفي، ولكنه كبير نسبيًا، ويلزم استئصاله؛ ولأنها فتاة بكر ستقوم الطبيبة بإجراء العملية عن طريق البطن للحفاظ على عذريتها.

ظللت في حيرتي طوال اليوم، وقررت أن أواجهها عند عودتها إلى البيت، وبالفعل فعلت وحاولت إقناعها على الأقل أن تود أمها وأباها وأن تتواصل معهم، وألا تكون عاقًا لهم هكذا، ولكنها بكت وقالت بهدوءٍ: " هذا الأمر سأحتفظُ به لنفسي، أستأذنك لا نتحدث فيه مرةً أخرى."

تركتني بعد أن قالت: "تصبحي حضرتك على خير."

واعجباه! مؤدبة، هادئة وجميلة، ولكن لا يكتمل الإنسان أبدًا، وخلال الأيام التالية لهذا اليوم، زاد انطوائها وعزلتها وخلال شهر كانت تودعنا؛ لأنها ستنتقل لسكن آخر، وما أن سألتها ردت: 'لا لن أعود لهم، يكفيني ما كان، هذا أفضل."

تُرى هل كان أبوها قاسيًا لتلك الدرجة التي تجعلها عزوفةً عنه، أم أن الأم سلبية تفتقر للعطاء لابنتها تلك؛ مما أنتج هذه الفجوة والجفاف، وإصرار بتول عليه، أم أنها كما وصفتها الأم: نمرودة!

تمت

(٣)

ناردين

ناردين كانت أصغرهن سنًا، حيث كانت طالبة في الجامعة لسه في سنة أولى، وتم الإيجار عن طريق زيارتها هي والدتها، وأمنتني عليها، بدأ الحوار مع ناردين بالصدفة.

ناردين كانت شخصية نشيطة جدًا، تستيقظ مبكرًا جدًا، ويمكن ذلك الذي جمع بيني وبينها، دائمًا كانت تراني وأنا أتناول فنجانَ الشاي الصباحي، والمواعيد الدقيقة التي تُحضر لي فيها الخادمة متطلباتي، وأنا جالسة بجوار شجرة الياسمين الجميلة، وكانت المواجهة الأولى الشقية ناردين هي التي اقتحمت الهدوء عليَّ في هذا الصباح الجميل، وقالت: "صباح الخير، أزيك يا دكتور؟ أنا ناردين." وبدأت تعرفني بنفسها، وبدأت تلعب رياضة بعدما استأذنتني قائلةً: "ممكن ألعب الرياضة الصباحية في الجنينة الجميلة دي، ولا هضايق

حضرتك؟" سعدتُ لبشاشة وجهها الجميل، والمحمل بابتسامةٍ صافية كضوءِ الشمس في أول ظهوره في السماء، حاولت أكثر من مرة أنها تكلمني، أو تستعير بعض كتبي عندما رأتني في بعض الأحيان أقرأ في الصباح الباكر بعد إنهائي لقراءة القرآن، أقرأ شيئًا من الكتب خاصتي، كانت دائمًا تحاول أن تتحدث معي، إحساسي قال لي: "إن فرق السن الذي بيننا هو السبب، ربما هي متعلقة بوالدتها، لسه خارجة من حضن ماما وبابا يعني في وقت قليل، ده اللي خلاها تقرب مني، وكانت شخصية لطيفة وهادية، وبدأت تتقرب مني كل يوم الصبح، وكان اليوم الذي لا تنزل فيه ناردين للعب الرياضة الصبح، أشعرُ بنقص شيء ما، اليوم لم يبدأ وبدأتُ أتعود عليها، وفعلًا البنت قربت مني بشكل لطيف لدرجة أنها حاولت تقول لي: "إنني مثل والدتها." وتقرب مني وبدأت تحكي لي عن كليتها، ولكن كانت مفاجأة بالنسبة لي يوم ما وجدت ناردين تبكي بشكل غير طبيعي وهي داخلة الحديقة الصبح، نازلة من غرفتها،

وتبكي بشدة جدًا، لا أستطيع أن أوصفه بالهستيري، ولكن بكاءً حارًا.

"خير يا بنتي، مالك؟" مدت يدها بالتليفون لي، فقد أرسل أخوها الكبير رسالةً تؤكد أن والدتها مريضة، وهي في المستشفى في بلدهم، وده كان أول تقارب شديد بيني وبين عائلة ناردين، وبالتأكيد طبعًا البنت لما تكلمت كده حسستني بإن في تجربة جديدة بتمر بشابة، واستأذنت وخرجت ناردين من البيت بدري جدًا؛ لكي تسافر لوالدتها المحتجزة في المستشفى، وتمنيتُ أن يكون مرض والدة ناردين ليس خطيرًا؛ لأن البنت كانت منهارة جدًا، وأنا حسيت من كثرة حكايتها عن والدتها وحبها لها ورعاية والدتها لها، أنها صديقتها المقربة، ولأول مرة تبعد عنها؛ بسبب دخولها الجامعة في القاهرة وكيفية تعلقها بوالدتها، كانت إنسانة جادة وملتزمة وأكملت حياتها مع أولادها؛ لكي تستطيع تربيتهم، وكما يُقال

"توقفهم على رجليهم في غياب الأب" كنت أتمنى لها أن تعود بالسلامة، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

مرت الأيام صعبة وثقيلة على ناردين، وكانت تشكو دائمًا من صعوبة هذه الأيام سواء من الناحية المادية، أو النفسية هذا ما قالته لنا أنا وصديقاتها وزميلاتها بالسكن، حين عادت مختلفة عما ذهبت، من حال النشاط، المرح، والإقبال على الحياة، كانت والدتها تعمل كثيرًا إلى حدٍ ما، فقد كانت موظفة في أعمال إدارية بإحدى الوزارات، وكان عملها المستمر بعد ساعات العمل وليس المقصود هنا ساعات العمل الرسمية بالعمل نفسه، فقد كانت السيدة ترعى أبناءها وحدها بعد وفاة الأب، فقد كانت تعمل عملًا آخر في التطريز بعد انتهاء عملها كموظفة، مما أرهق عينيها كثيرًا.

وأُصيبت بالمياه الزرقاء على عينيها، مما أدى إلى وصول الحالة التي أبلغها أخوها بها أنه نقلها للمستشفى، لعمل جراحة بالعين والأمر كان بالنسبة لهم مفاجأة، فلم تشكو الأم لأي منهم

رغم آلامها، ولكن تمكنوا من عمل العملية لها وعلى ما سردت ناردين لنا حين عادت، أن والدتها ما زالت تحت الرعاية فترة طويلة بعد العملية ما يقرب من شهرٍ كامل، لا نتعرض لنار لا تعمل، الأمر لم يكن بالسوء الشديد، ولكنه كان صعبًا، صعبًا جدًا أن ترى إنسانًا نشيطًا يجبره المرض على التقاعد، وبالتالي قلت الموارد المالية كثيرًا، فلم تعد والدة ناردين قادرة على الإنفاق عليها؛ لإتمام دراستها فحالهم متوسط، فأخوها يعمل أيضًا في محل أبيهم للعطور، فلم يكن الدخل فائضًا كثيرًا، لم يتمكنوا سوى من توفير تكاليف نفقات العملية، وخرجت الأم من المستشفى وتأخرت ناردين كثيرًا عند والدتها، لتقوم بخدمتها وحين عادت بعد ما يقرب من شهرين تقريبًا، كان التواصل بينها وبين زميلاتها، أنها لن تترك العام يمر دون أن تدخل الامتحان، ولكنها فقدت كثيرًا من الدراسة، حاولتُ التواصل معها، وحاولت أن أتعرف على أساتذتها بالجامعة، ولكن للأسف فقدت ناردين القدرة على الدخول للامتحان في هذا الفصل الدراسي، ولكنها لم تكن يائسةً، بل بالعكس

وجدت منها تفاؤلًا لما هو آتٍ رغم مسحة الحزن، والتفكير المستمر في غدًا، كيف ستمر بهذه الأزمة تلك الفتاة؟ وكيف تعبر هي وأخيها وأمها تلك المحنة؟! كان هذا ما يدور في خلدي حين سمعتها، وهي تحكي لزميلاتها، وهن بحديقة المنزل يتسامرون، حين عادت بعد شهرين ولكنها صممت على أن تكمل، وبدأت بالفعل تبحث عن عمل لها؛ لأن والدتها لن تستطيع مرةً أخرى أن تعمل بالتطريز من جديدٍ كما كانت تعمل من قبل، فما زال أمامها وقت للرعاية بعدها، وقد قررت ناردين وأخوها الأكبر ألا تعود أمها لذلك، لذلك بدأت ناردين في البحث عن عمل إلى جانب دراستها، جذب انتباهي ذلك الأمر، وأخذت أفكر هل ستمر هذه الشابة من هذه المحنة بنجاح، أم أنها سوف تمر منها محطمةً؟

وأخذ الأمر من تفكيري كثيرًا لم يكن بيدي شيء، أو لم يكن لدي شيء؛ لأقوم به تجاهها فهي بالنسبة لي مستأجرة، كل ما أستطيع أن أقوم به هو أن أخفف عنها أعباء الإيجار

هذا ما وصلت إليه بالتفكير، أو هداني إليه تفكيري؛ لأساعد تلك الشابة الصغيرة حتى لا تفقد تعليمها، أو تفقد إيمانها بأن القدر لن يقسو عليها أكثر من ذلك، وبالفعل ناديت خادمتي قائلةً: "أرسلي لي ناردين حالًا؛ فأريد التحدث إليها." وكنت متأكدة أنها ستفكر في أنني سوف أطالبها بالإيجار المتأخر، ولكنني احترمت مثابرتها، وحاولتُ أن أكون داعمةً لها، وبالفعل أبلغتها أنني لن أخذ منها الإيجار المتأخر؛ فهي كابنتي إلى أن تقف على أولى خطوات مستقبلها الجديد، وبالفعل فرحت كثيرًا تلك الشابة بذلك التعويض الذي اعتبرته هديةً من الله وشكرتني ببشاشة وجهها، ومرحها المعتاد، وكانت هذه أول مرةٍ أراها تعود إلى حالتها الطبيعية، وسعدت كثيرًا، وكانت كلمتها المرحة: "لما ماما تيجي إن شاء الله القاهرة هنا، لازم تشوفك يا دكتورة، اسمحي لي، عارفة إن مش هينفع إننا نستضيفها هنا، ولكن من فضلك خليها بس مرة واحدة تقدر تزورنا، وتشوف المكان، وتتعرف على حضرتك." حسيت في الوقت ده إن ناردين اعتبرتني صديقةً لها، وبالفعل بدأت

ناردين تبحث عن الشغل إلى أن وجدت وسيلة عمل جديدة، تعبت في الأول طبعًا، شوية من مشاكل عمل شابة إلى جانب دراستها من جراء بعض العادات والتقاليد في مجتمعنا، وبعض الأخطاء، والسقطات في مجتمعنا أيضًا، ونظرتهم للفتاة ولكنها ثابرت، وأصرت على إكمال المشوار، ولم يمر عام، حتى استأنفت دراستها مرةً أخرى، وبدأت في العمل من المنزل كمصممة للديكور والجرافيك، أمر بعيد عن دراستها، ولكنها برعت فيه وقامت زميلاتها بمساعدتها أيضًا في نشر الصفحة، وبعض الأعمال التي يقوم بها الشباب من خلال شبكة المعلومات الدولية، وبدأت تروج صفحتها على أنها مصممة للجرافيك أكثر من كونها مصممة للديكور، أو مساعدة لمهندس ديكور، فقد حاولت وحاولت عدة مرات، وبالنهاية وصلت إلى ما تريد، فأصبحت لها وظيفة ثابتة، ولكنها تقوم بها من المنزل أحيانًا، سعدتُ بهذه الشابة، وتمنيتُ لو كانت الأقدار تمنحها فرصةً للنجاح دون أي إصابات نفسية، أو أي آلام جديدة، فقد عبرت بأمها من تلك المحنة المرضية، وكان

أخوها نعم الأخ حقًا! كم تصورت في خيالاتي، عدة سيناريوهات إلى أن تعرفت عليهم فعلًا في يوم تخرج ناردين، فقد ظلت الفتاة مستأجرةً لغرفتها في منزلي لعدة سنوات، إلى أن أنهت دراستها، وفي ذلك اليوم وهي تستعد لحضور حفل التخرج، حضر شاب راقٍ مهندم المظهر بصحبة سيدة مسنّة، ولكنها ليست طاعنة في السن، ولكنها كانت تخطت الستين لزيارة ناردين، واستقبلناها بالترحاب في حجرة المعيشة، فركضت ناردين بالطبع من حجرتها، وأسرعت في نزول الدرج؛ لتستقبلهم وعرفتني عليهم يومها، فقد علمتُ أنهم والدتها وأخيها الأكبر، شكروني بعدما قدمتني إليهم ناردين لما قمت به في ذلك العام من وقوفي إلى جوارها كأم بديلةٍ في لحظة من لحظات الحياة العسرة، وهكذا خرجوا جميعًا للذهاب إلى حفل تخرج ناردين الذي دعتني إليه أيضًا، وبالفعل حضرنا الحفل جميعًا، وشعرتُ أنني أمام تجربة نجاح جديدة، تمنيتُ لها كثيرًا أن يوفقها الله في حياتها القادمة، وشكرتني وعادت وحدها معي إلى المنزل، فقد سافر أخوها وأمها بعد الحفل مباشرةً؛ فهم لم

يتمكنوا من البقاء في القاهرة، وترك زوجة أخيها، وأطفالها في بلدهم وحدهم.

لم يمر وقت طويل بعد تلك الحفلة، فقد أكملت ناردين طريقها في الحياة، وجاءت لي يومًا وهي سعيدة يملأ وجهها إشراق الفرحة قائلةً: "أخيرًا هتترحمي مني يا دكتور، أنا الحمدلله، تم قبولي في شركة كمصممة جرافيك، كان نفسي في يوم من الأيام أشتغل بشهادتي، لكن الحظ جاء هكذا." وتركتنا ناردين، وذهبت لمرحلةٍ أخرى من حياتها، وظلت معي على تواصل حتى الآن، وأنا أراها من شرفتي تدخل من باب الحديقة لزيارتي كما عودتني كل فترةٍ. "بارك الله فيكِ أيتها الشابة البشوشة."

تمت

(٤)

احترقت الأوراق

صحوت فجأةً بشكل منزعج جدًا، ضوضاء غريبة، وكلمات متداخلة، علمتُ أن هذه الأصوات، أصوات البنات المستأجرات لحجراتِ الشقة بالدور العلوي، ولكن ما هذه الرائحة؟

إنها رائحة حريق، يا إلهي! أوراق تحترق، تحدثتُ إلى نفسي بغضبٍ مرةً أخرى، بالأمسِ أيضًا كانت نفس رائحة الحريق هذا، ما الذي يحدث؟

"اللهم اجعله خيرًا يا رب" مسحت وجهي؛ كي أستيقظ، ولكن ارتفع صوت الشجار بين البنات؛ فخرجتُ لأرى ماذا يحدث؟ ولِمَ في هذه الساعة المتأخرة من الليل يا إلهي! لقد اقتربنا من الفجر، وخرجت مسرعةً لأصعد الدرج؛ لأرى ماذا

يحدث؟ خير يا فتيات ما الذي يحدث؟ لماذا أصواتكن عاليةً؟ لا يصحُ هذا أبدًا.

نيڤين: عجبك كده؟ أهي صاحبة البيت صحيت بسبب عمايلك.

سارة: عمايلي أنا؟ أنا يا نيڤين اللي عمايلي مش كويسة، ولا صوتك العالي؟

أنتِ اللي عمايلك مش كويسة.

نيڤين: تصرفاتك كلها غريبة يا سارة.

سارة: أنا تصرفاتي مش غريبة يا نيفين.

رادا: لا غريبة!

سارة: حتى أنتِ، حتى أنتِ يا رادا.

صاحبة البيت: اسكتوا لو سمحتم، علشان أعرف فيه إيه بالضبط؟

اتفضلي تكلمي يا سارة فيه إيه؟

سارة: أبدًا يا دكتورة، أنا لقيتهم بيخبطوا عليَّ بطريقة عصبية جدًا في عز الليل، وبيزعقوا فيا، وخايفين وقالوا ليا: "أنتِ مسببة لنا مشاكل، أنتِ بتعملي مصايب؟ إيه حكاية الورق اللي بتحرقيه كل يوم ده؟ وليه بتحرقي الورق بالطريقة دي؟ وليه في التوقيت ده؟ وفتحوا ليا محضر، وأنا معملتش حاجة، أنا مليش دعوة بحاجة، من فضلكم، من فضلكم اخرجوا، وسيبوني أنا محتاجة أنام عندي كلية بكرة الصبح."

أمام انهيار الفتاة بهذا الشكل صدر إلى نفسي اضطرابًا شديدًا، وقلقت جدًا لا قدر الله البنت تكون بتعمل إيه بالضبط؟ وإيه حكاية حرق الورق؟ زميلاتها في السكن يؤكدون أنها لها عدة أيام تقوم بذلك، أنا شخصيًا حسيت برائحة الحريق هذه، مرة واثنين، واستغربت جدًا، لكن عندما رأيتها ترتعش ومضطربة، والخوف والدهشة يملآن عينيها، قلتُ لها: "خلاص

من فضلك مفيش داعي لتكرار ده مرة تانية، اتفضلي شوفي مصالحك، أو تدخلي تنامي، اتفضلوا يا بنات كل واحدة على غرفتها، رادا، نيفين من فضلكم متفتحوش الموضوع ده تاني، وأنا ليا كلام معاها بس الصباح رباح، تصبحوا على خير، وخلوا بالكم، أنتم مش ساكنين لوحدكم في المكان."

مش بس أقصد نفسي، إحنا كمان لينا جيران وميصحش يبقى صوتنا عالي في التوقيت ده من الليل، ولو سمحتي، لو سمحتي يا سارة وده إنذار أخير، مفيش داعي لحكاية حرق الورق ده بالليل، دي آخر مرة مقابل ده هيبقى لينا تصرف تاني، تصبحوا على خير، اتحركت البنات كل واحدة على غرفتها، وأنا كمان نزلت، لكن مقدرتش أنام، وبقيت أفكر، وقلقانة جدًا يا ترى البنت بتعمل كده ليه؟ لحد ما طلع النهار، وقمت بطقوسي اليومية العادية، بدايةً من صلاةِ الفجر لما يليها من طقوس يومية أقوم بها، حتى فتحت الشغالة الباب.

الشغالة: صباح الخير يا دكتورة أجهز لحضرتك الشاي والفطار؟

صاحبة البيت: شوفيلي الأول البنات فين؟ أنا في عندي حاجات كتير لازم أتكلم معهن فيها.

الشغالة: حاضر يا دكتورة، ثم خرجت لترى البنات.

كل واحدة فيهن بتجهز علشان تروح لكليتها، لكن سارة مش موجودة "يا ربي أين ذهبت؟ وماذا حدث؟"

عدة أسئلة قفزت لرأسي حين أخبرتنى الشغالة بغياب سارة.

الشغالة: يا دكتورة البنات بيجهزوا عشان يروحوا الجامعة بتاعتهم وسارة بس هي اللي مش موجودة حضرتك تأمري بحاجة؟

صاحبة البيت: اتفضلي أنتِ دلوقتي يا دادة، وأخذت أتعجب كثيرًا من هذا الموقف الغريب، هل قصدت ألا يراها أحد وهي تغادر المنزل في الصباح؟ هل يحق لي أن أفتح الغرفة لأرى ما إذا كانت أخذت كل ملابسها وأدواتها وكتبها وكل

أغراضها؟ هل تركت المنزل؟ تُرى ماذا حدث؟ أخذ التفكير يتلاعب بعقلي طيلة النهار ولاحظت شغالتي وإحدى الشابات التي لم تنزل إلى عملها بسبب إصابتها بدور أنفلونزا، فلم تتوجه إلى عملها في ذلك اليوم ولاحظوا عليَّ هذا الاضطراب والتوتر، وبادرتني هذه الشابة اللطيفة بالحوار لو سمحتِ يا دكتورة: "أنا شايفاكِ طول اليوم النهاردة متوترة تخرجي الجنينة شوية تتمشي وترجعي، ومش في حالتك الطبيعية مالك يا دكتورة في أيه؟"

صاحبة البيت: "مش عارفة والله يا صفاء الموقف اللي حصل بالليل ده، أنتِ سمعتي وشوفتي اللي حصل أنا قلقانة جدًا على سارة ومستغربة من تصرفتها."

صفاء: "بس يا دكتورة إحنا مشوفناش منها أي حاجة تثير القلق ومن ساعة ما جت وسكنت معانا البنت فعلًا هادية."

الدكتورة: "فعلًا يا صفاء هي هادية ومؤدبة ومعملتش أي مشاكل بالعكس وباين عليها أنها بنت ناس وبنت عائلة أسلوبها مهذب وهادية وبريئة ولطيفة جدًا، وشايفاها كمان

ملتزمة بكليتها وفي أخلاقها وفي لبسها وفي تصرفاتها معانا، لكن ليه التغيير المفاجئ ده؟ حتى زميلاتها بيقولوا أنها متغيرة كده معاهم بقالها أكتر من عشرة أيام وحكاية حرق الورق الغريبة بعد نص الليل كل يوم دي ثالث مرة ولا رابع مرة زي ما البنات زميلاتها بيقولوا، أنا لاحظت مرتين أو ثلاثة فيه تغيير مش طبيعي.

صفاء: اطمني يا دكتورة إن شاء الله بإذن الله هنعرف، وهتكون بخير، ومفيش أي مشاكل، أنا عارفة وواخدة بالي كمان جدًا إن الاضطراب طبعًا ساد المكان، بسبب الموقف ده وخصوصًا انهم شابات صغيرات، في أول طريقهم فطبعًا، هتروح وتيجي عليهم الأفكار الغريبة قبل الأفكار الطيبة، أنا مش بلوم حضرتك، لكن اعتبريه رأي من أخت أصغر، لما تيجي حاولي تكلميها، أو نتناقشي معاها مجرد مناقشة بسيطة، يمكن لما تلاقي مفيش ضغط من زميلاتها عليها، أو من أصحابها تقدري تعرفي في أيه وأنا متأكدة إن شاء الله هيكون خير،

يعني مفيش أزمة كبيرة ممكن يكون أي سبب، ممكن جوابات حبيب سابق مثلًا، أو لفظ الجلالة البسملة على ورق فهي بتحرقه حاولي معها يا دكتورة تعرفي، وفعلًا وأثناء حواري مع صفاء لمحت سارة وهي داخلة من باب الجنينة، ولفت نظر صفاء أن سارة جت.

الدكتورة: أهي جت يا صفاء رأيك أيه تكلميها أنتِ ولا أكلمها أنا؟

صفاء: بصراحة يا دكتورة حضرتك بمثابة أم ليهم وأخت لينا كلنا، وبعدين الأمر يخص حضرتك أكتر، لأن ده بيتك لكن لو أنا كلمتها أعتقد هيبقى الموقف مش لطيف، وهيبقى فيه حساسية في الموضوع شوية، أو حذاريات مش مقبولة لأني أعتبر زميلتها في السكن هتقول ليا وأنتِ مالك بيا، لكن لما يجي الكلام من حضرتك هيبقى معقول أكتر، ومقبول أكتر كمان، أنا هسيبك معاها وأطلع أرتاح شوية، واضح أن دور

البرد مأثر عليَّ، وشكلي مش هروح الشغل بكرة كمان، عن إذنك يا دكتور.

الدكتورة: اتفضلي حبيبتي.

فكرت في كلام صفاء، وأخذت وقتي في التفكير الذي طال حوالي أكتر من نص ساعة، وقررت أطلع بنفسي للبنت، حتى ولو من باب الاطمئنان عليها ممكن تكون فعلًا محتاجة حد كبير يفهمها، يوعيها، ويتناقش معاها مثلًا، وفعلًا بعت الشغالة تشوفها: يا دادا لو سمحتي اطلعي شوفي سارة في غرفتها، وقولي لها الدكتورة عايزة تقابلك تحت في غرفة المعيشة، وبالفعل طلعت الشغالة وخبطت علي سارة مرة واثنين وثلاثة، لكن سارة لم تفتح الباب، نزلت الشغالة وقالتلي: "يمكن نايمة، يمكن في الحمام بس مرضيتش تفتح الباب مع الأسف."

فضلت سارة رافضة التواصل مع أي حد في البيت، واستمر الأمر ده أكتر من أسبوع تخرج الصبح قبل ما زميلاتها يفوقوا، أكلها قليل، ترجع قبل ما يجوا وأول ما ترجع حتى

أيام المحاضرات المتأخرة بتاعتها ترجع، وتقفل على نفسها غرفتها حتى الأكل بقى قليل جدًا، بقت الشغالة مرة تطلع الأكل لها فوق في غرفتها ترفض تأخذه، ومرة تأكل كميات قليلة ونادرًا جدًا لما بقت تنزل حتى الجنينة في أيام الأجازة، وصحيت النهارده بعد مرور أكتر من عشر أيام على الموضوع، على نفس المشكلة مرة تانية ريحة ورق بيتحرق لا إله إلا الله إحنا رجعنا تاني! إيه ريحة الورق اللي بيتحرق ده تاني، ونفس المشكلة ونفس الدوشة، ضوضاء جامدة جدًا من صوت البنات، لكن المرة دي على ما وصلت لهم فوق لقيت صفاء بتحتضن سارة وبتقولها: "خلاص متعيطيش يا بنتي يا حبيبتي، زميلاتك خايفين عليكِ، إحنا هنا أخواتك، اعتبريني أختك الكبيرة ، لكن متعيطيش، وتنهاري كدا فهميهم حتى، أو فهمينا كلنا في أيه؟ مالك مالك يا بنتي؟

سمعت ده، وأنا على آخر درجات السلم، ووصلت عندهم.

وبلفظ حازم واحد خير في إيه؟ ساد الصمت عليهم جميعًا، وانزعجوا عندما وجدوني بينهم مرة أخرى.

نيڤين: أبدًا، أبدًا مفيش حاجة، مفيش حاجة.

لارا: متكدبيش يا نيڤين على الدكتورة، أكيد عايشة معانا في البيت، وحاسة.

رادا: استني يا لارا، آسفين يا دكتورة، اتكرر الموضوع تاني.

نيڤين: مش كانت عايزة تقول لحضرتك، لكن أنا ولارا مصرين إن أحنا نقول لحضرتك.

صاحبة البيت: قولي يا نيڤين في إيه اللي حصل؟

إحنا يا دكتورة صحينا تاني النهاردة على نفس ريحة الحريق آسفة يا دكتورة ارتبكت كتير، صحينا على نفس الأصوات اللي بتعملها سارة، عياط شديد في غرفتها، وكان قبلها صارخة كده خوفتنا جدًا، وبعدين على ما جينا وفوقنا ولمنا بعض من غرفنا جينا لقيناها بتحرق برضوا الورق بنفس الطريقة، وريحة

الحريق مالية المكان، وأدي النتيجة حضرتك إحنا لحقنا جزء بس من الحاجة.

النتيجة كانت إن سارة حرقت كمية ورق كبيرة في سلة المهملات المعدنية اللي في غرفتها، ومفيش أي أسباب، وفي ورق تاني مقطع كتير حواليها، وعليه كتابات بخطها، لكن إحنا مش فاهمين انهارت، وفضلت تعيط ومش راضية تتكلم، ولا تقول لحد أبدًا في إيه؟

وصفاء أكبر النزيلات سنًا ولكنها لسه في ريعان شبابها بس هي موظفة، ولكنها مغتربة عشان كده جت عندي، وسكنت مع البنات، ظلت تهدئ من بكائها وأنا أمرت البنات إن كل واحدة تتوجه لغرفتها.

"اتفضلوا على غرفكم لو سمحتم، وعايزة سارة تهدى شوية، من فضلك، اهدي شوية يا بنتي لا داعي للاضطراب ده، لو فيه حاجة نقدر نساعدك فيها قوليلنا."

صفاء: لو في مشكلة قوليلنا نحاول نحلها معاكِ على الأقل أنا أكبر منك يا بنتي في السن، واحتمال أقدر أساعدك.

لكن سارة فضلت تبكي في حضن صفاء بانهيار وأشارت نحو صفاء بعينيها إنها تبقى معاها، خرجنا كلنا من الغرفة وتركنا صفاء مع سارة في الغرفة، وهي تبكي وكنت سامعة صوت البكاء، والنحيب حتى وصلت تقريبًا لمنتصف السلم، ووقفت متعجبة يا ترى ماذا يجعل البنوتة الصغيرة تبكي بالحرقة دي؟ وإيه حكاية حرق الورق ده؟ إلى أن شَعُرت إن الصوت هدأ تمامًا، رجعت مرة تانية أطمئن عليها، وبصراحة كان يتملكني خوف داخل نفسي، قد تكون البنت بتعمل حاجة مقلقة ومخيفة، ولماذا بتكتب الورق ده وتحرقه؟ وجدت سارة بدأت تنام وتهدى على يد صفاء التي أشارت لي إنها هدأت تمامًا، وقبلتها في جبينها، وقالت لها: "أنا هروح أنام." أمسكت يديها، ابتسمت صفاء وقالت لها: "هينفع يعني كده؟ السرير الصغير ده هيكفينا إحنا الاتنين!"

طيب اتفضلي حضرتك يا دكتورة إحنا هنبقى كويسين، أنا هقضي اليوم معاها لغاية ما تهدى وتنام أنا هبات معاها الليلة دي، وفعلًا أنا أطفأت النور، وأغلقت الباب، وبقيت صفاء معاها في الغرفة، وذهبت سارة في النوم على ذراع صفاء التي سحبت يدها ببطء كي لا تقلق سارة، وغطتها وجلست جنبها على الكرسي تغالب النوم تارة، وتنام تارة ما طلع الفجر والنهار بدأ يملأ المكان بنوره، والبنات خرجن كل مسرعات.

زميلة سكنهم الموظفة الأخرى كانت أكثر هدوءًا من الجميع خرجت إلى شغلها في صمت، وهي خارجة قالت للشغالة: "أنا هحاول أروح أخذ إذن وأرجع تاني ياريت تبتدي بتنظيف غرفتي أول حاجة النهاردة؛ لأن فعلًا موضوع أننا معرفناش ننام طول الليل ده تعبني جدًا، أنا هروح أخذ إذن وأرجع يا دادا وحياتك."

الشغالة: "عيوني."

أما البنات الصغيرات اللي كانوا لسه طلبة خرجوا جري على الصبح متأخرين طبعًا، التي أخذت ساندويتش بسرعة من على السفرة، والتي ما تاخد حاجة غير بسكوتة وجرت علشان التأخير اللي اتأخروه امبارح في النوم، مع الأسف البيت كله يومها قام متأخر، لكن أنا ما نمت، وكنت قلقانة جدًا على سارة وصعدت كي أطمئن عليهم ترى ماذا حصل؟ وماذا تم! وجدت سارة تجلس أمام الشباك تطل منه على الحديقة، ودموعها شبه جافة حالًا؛ لأن عيونها ما زالت حمراء مغرورقتين بالدموع، ولكن أثر الدموع على خدها كان موجود، ولكنها كانت ساكتة تمامًا، أردتُ أن أدخل أطمئن عليها لكن منعتني لمسة على كتفي من يد صفاء.

صفاء: هي مش هتروح النهارده الكلية يا دكتور، وأنا كمان أخدت أجازة من شغلي علشان خاطرها أنا لسه لم أتعافَ من دور البرد والظاهر إن هي محتاجة تتكلم، وتفضفض كتير لكن محرجة من البنات اللي من سنها، زميلاتها اللي معاها في الجامعة

قالت لي كلمتين كده صغيرين وبساط لما صحيت النهارده الصبح، ولاقيتني نايمة جنبها على الكرسي في غرفتها

"أنا مكسوفة منك أوي يا أبلة صفاء."

صفاء: "لا يا سارة متقوليش كده أنا مبسوطة إن ليا أخت صغيرة، أنتِ بتعوضيني عن أختي هند شوية بكره إن شاء الله لما هند تخلص الدراسة الثانوي، وهتدخل الجامعة يا عالم هتبقى جامعتها هنا ولا في بلدنا، إذا كانت هنا أكيد هتيجي تزورني أو تسكن معانا وتتعرفي عليها.

سارة: "أبلة صفاء أنا مكسوفة أوي أوي الناس هنا فهمتني غلط، وأنا عملت مشاكل بس أنا مش عارفة أتصرف إزاي؟ أنا عندي مشكلة وحاولت أحلها معرفتش."

صفاء: "إيه المشكلة؟ فضفضي يمكن أقدر أفيدك بخبرة ما اكتسبتها من الدنيا ومن الحركة في الدنيا."

قالت الكلام ده ومكملتش كلامها يادكتورة، وسكتت وأنا قلت لها إن إحنا ننزل نفطر مع حضرتك تحت أو نتمشى في الجنينة يمكن تقدر تفتح قلبها وتتكلم يمكن.

الدكتورة: "حاولي يا صفاء وطمنيني أنا القلق بيأكل في دماغي، القلق موترني جامد جدً أتمنى ما يكون عندها كارثة تخوفنا كلنا عليها، أو تلعب بسمعة المكان."

تركت المكان وتوجهت إلى روتيني اليومي، لأقوم به كالمعتاد، احتسيت القهوة وأنا أنظر من شباك حجرة المعيشة إلى الحديقة، وأقرأ بعض الصحف أو الكتب وبمعنى أكثر دقة كنت أقوم بروتيني اليومي لقتل الوقت؛ حتى تعود صفاء للحديث معي، رأيت الفتاتين تتجولان في الحديقة، وتتحدثان معًا، فعلًا استطاعت صفاء جعل سارة تتكلم، بدأت سارة تتكلم

مع صفاء وهما في الحديقة وقت طويل جدًا، وبعد فترة من الوقت مرت وجدت صفاء ترفع رأسها لتنظر لي وهي تعلم إن أنا موجودة أتابعهم من الشباك مبتسمةً، وتحرك رأسها بعلامة الإيجاب.

اطمأنت نفسي قليلًا أن سارة بدأت تتحدث، وتحاول تُهدئ من روعها، ورأيت وجه صفاء وهي تضحك، ثم ارتفع الصوت وهي تقول: "يعني مش أخر الدنيا يا ستي، دي مش نهاية العالم، تعالي تعالي يا عبيطة تعالي نطلع للدكتورة دلوقتي اللي مرعوبة وفعلًا صعدت البنتين عندي، وبدأوا يستأذنوا "اسمحلنا نقعد معاكِ يا دكتورة إحنا جايين بس؛ علشان نطمنك." ده كان كلام صفاء اللي قالت إحنا بنطمنك يا دكتورة مفيش حاجة تخوفك، ولا تقلقك لا هي مشكلة عويصة، ولا هي مشكلة كبيرة زي ما كانت سارة فاكرة سارة عندها مشكلة إنها حدث لها بعض التعثر المالي؛ نتيجة أن عمتها ربنا يديها

الصحة حالتها المادية مش ولابد، عمتها تعبت وللأسف بتشتغل أعمال حرة مش موظفة مفيش مورد مالي لها.

حاولت سارة تحل الموضوع دا، أو تتغلب عليه لكن لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن يا دكتورة، عمومًا أنا حبيت سارة هي اللي تحكي لحضرتك؛ لأن أنا أقنعتها أنه مينفعش حد يحكي حاجة تخصها لحضرتك لازم هي بنفسها اللي يكون عندها الشجاعة أنها تواجه، وتتكلم.

خرجت صفاء من المكان، وتركتني أنا وسارة مع بعض وسارة يبدو عليها الارتباك بشكل واضح جدًا تمسك يديها ببعضها، بتحرك أصابعها بشكل توتري، وتنظر لي وتتكلم بتأثر، وتردد لكن في النهاية. قالت: "أنا يا دكتورة بصراحة أعيش أنا وأخي مع عمتي من فترة طويلة بالتحديد من بعد وفاة والدي ووالدتي في حادث سير أثناء رجوعهم من سفرية، كانوا مسافرينها لحضور عزاء لأقارب أبي والعزاء كان في قرية مجاورة لنا، توفوا في حادث سير تكفلت بنا عمتي التي كانت

عايشة معنا في البيت بعد وفاة جوزها، كانت فترة طويلة جدًا، أنا وأخويا بنحب عمتي جدًا، وعمتي كانت بتحبنا جدًا؛ لأن ما عندها أولاد، وقربنا جدًا من عمتي من معاملتها الحلوة لينا ورعايتها لمصالحنا مش لأن عمتنا كانت صديقتنا وكنا نحبها وتحبنا جدًا، وهي من قامت بتربيتنا وصلت أخويا لكليته، ووصلتني للجامعة اللي أنا بحبها لم تعترض، ومحرمتش حد فينا من حاجة، ضغوط المصاريف كانت جبارة جدًا عليها هي بتشغل المكتبة بتاعتها اللي ورثتها من جوزها لبيع الأدوات المدرسية، وتصوير المستندات، وبعض أعمال الطباعة وكتابة الرسائل العلمية، عمتي فضلت تكافح معنا فترة طويلة من العمر.

أكثر من اثني عشر سنة، هو الوقت اللي توفى بابا وماما، وفارقونا فيه، تفوقت أنا وأخي في دراستنا والحمدلله، وهذا ساعد عمتي فى المصاريف؛ لأن لينا مكافأة تفوق من الكلية بتاعتنا شهرية نأخذها، ومنحة مجانية للدراسة أيضًا ومعاش بابا وماما؛ لأنهم كانوا موظفين بيساعد شوية، كل ده لا يكفي

المعيشة، والحياة في الغلاء اللي إحنا فيه يا دكتورة، عمتي لما تعبت في البداية كانت بتقدر تقف في المكتبة، ويجي أخويا من شغله يقف شوية، أنا أرجع من المدرسة كنت أقف شوية، أما الآن أمراض الشيخوخة تصاحبها، ومع الأسف العلاج غالي جدًا وإحنا مش قادرين عليه أنا وأخويا، لكن كانت دائمًا تحاول ما تشعرنا أبدًا وإحنا بنتمنى نرد لها الجميل بس مع الأسف إحنا مش عارفين نرد إزاي؟ مش شرط يكون الجميل يا دكتورة فلوس بنردهالها، أو بنساهم في علاجها لأ، لمسة الحنان والعطف، وإحساس لما تشوف واحد مننا ناجح في حاجة، كان نفسي أقدم لها قيمة نجاح حقيقية، أنا كنت بحاول أشارك في مسابقة القصة عندنا في الجامعة، علشان أفرح بها عمتي كانت دائمًا تقول لي أنني من صغري بكتب كويس، وأسلوبي حلو في الكتابة، المرة دي أنا عجزت تمامًا عن إني أكتب أي جملة، وفاضل وقت قصير على المسابقة، وكل ما أكتب حاجة مع الأسف مش بقتنع بها، وأقطعها، تملكني الغضب أكثر من مرة، بقطع الورق واحرقه، علشان محدش

يشوف ضعفي، وفقري الأدبي، عجزت عن الكتابة مش عارفة والله يا دكتورة أنا حزينة جدًا على نفسي، ولما تملكني اليأس إني مش قادرة أكتب، ووقت المسابقة قرب أنا صرخت صرخة عنيفة لعجزي، وكراهيتي للموقف اللي أنا فيه مش عارفة أفرِّح عمتي بجد في أيامها الأخيرة، وتعبانة جدًا والزهايمر بيداهمها، الموقف صعب، نفسي أفرحها بشيء، كانت تتمنى لي عمتي أن ترى قصتي وهي فايزة بجايزة، أو في مسابقة رسمية. أنا مش عارفة أتصرف إزاي يا دكتورة؟ والأمر ده أزعجني جدًا جدًا و زود حزني على مرض عمتي، وحرماني من القلب الحنين اللي بيرعاني العمر كله، وأنا مش عارفة أردلها ابتسامة ولو بسيطة لمرة واحدة.

هنا سكتت سارة ولم تتكلم، وظلت تنظر إليَّ بحيرةٍ وكان كل ردي عليها إني ابتسمت، معقولة تخلي الناس تفكر فيكِ إنك مجنونة مرة، أو بتعملي حاجات غريبة مرة، يا بنتي زميلاتك افتكروا إنك بتحضري أرواح، أو بتستحضري جن،

حد يتهم نفسه الاتهامات دي طب وليه مقولتيش؟ كمان يا سارة الأمر مش صعب زي ما أنتِ فاكرة، في حاجات كتير تقدر تخليكِ تكتبي أبسطها إنك تفضي ذهنك، وعقلك من الألم اللي أنتِ مزوداه على نفسك ده، والغضب اللي أنتِ محملة بيه نفسك، حواليكِ قصص كتير في الواقع، وحواليكِ في حياتنا قصص تانية كتير، اسألي قلبك يا بنتي القصة بتتكتب إحساس، فكرة، سرد ابتدي من دلوقتي، دوري حواليكِ في ايه ممكن تقدري تكتبي فيه من الواقع، اكتبي القصة اللي أنتِ حكيتيها دلوقتي عن كفاح عمتك، دي قصة واقعية حلوة، وأنا اتنبأ لها أنها ممكن تاخد مركز كمان، تقدري تفرحي بيها عمتك، وأنتِ بتقولي إن الحاجات البسيطة الجميلة بتفرحها، وبتقولي ليا في وسط كلامك فرحت بأخوكِ لما تفوق، وخد ميدالية من كليته في النشاط الرياضي، ونفسك تفرحيها بكدا كمكافأة منك، أنتِ وأخوكِ إنكم تقدمولها السعادة، وهي بتعاني من المرض دلوقتي، وخصوصًا الزهايمر دا مش مرض جميل يا بنتي، آخر أيامها عايزة تفرحيها بس يارب تقدر تفتكركم يا

حبيبتي، وطبعًا أنتِ عارفة مشاكل الزهايمر، أه هتفرح لثوانٍ ممكن تفتكر، وممكن متفتكرش، ولكن أنتِ بتحاولي تقديملها حاجة بتحبها، اكتبي يا سارة حاجة من الواقع اللي حواليكِ وأنا معاكِ هراجع معاكِ اللغة العربية، وأنمق معاكِ الكلام وإن شاء الله تلحقي تقدمي في المسابقة بتاعت الكلية عندك، وإن شاء الله تاخدي فيها مركز، وتاخدي جوايز وتفرحي عمتك بيها.

ابتسمت ومسحت دموعها، وقامت قالتلي: "أنا هبدأ فعلًا يا دكتورة."

قولتلها: "اتفضلي يا سارة، ومتخبيش يا حبيبتي حاجة تاني زي دي، ومتعمليش لنفسك هالة من اللون الغامق اللي تخوف، وتقلق الناس عليكِ ومنك، اتفضلي يا حبيبتي وقامت سارة علشان تبدأ رحلة من رحلات كتباتها بدون ما تحرق الورق مرة تانية."

مر على الموضوع ده عدة أسابيع وسارة قالت لي إن تحكيم مسابقة القصة عندهم في الكلية قرب ولسوف يُعلن خلال أيام بسيطة؛ لأنه كان تم مد فترة التقديم نتيجة طلب الطلبة في الاتحاد عندهم في الكلية أنهم يمدوا فترة مسابقة القصة القصيرة في الكلية؛ لأن كان في عدد كبير من الطلبة كانوا يرغبون بالمشاركة، فرحت جدًا إن سارة بدأت تحاول تتغلب على خوفها، وارتعاش إيديها، وارتعاش أقلامها أنها تكتب مرة أخرى، وفعلًا كان يوم جميل جدًا، وأنا متواجدة في المكان الثابت لي أمام الشباك الذي يطل على حديقة المنزل، وقرأت المشهد من دخلتها من باب حديقة البيت وجهها متهللًا، وهادئ، وداخلة مسرعة رفعت عينيها، رأتني عند الشباك جريت المسافة المتبقية؛ ففهمت إن المسابقة نتيجتها ظهرت، وتقريبًا قرأت المشهد والمعنى من كون سارة عرفت النتيجة إنها في صالحها.

قالت فعلًا: "باركيلي يا دكتورة، باركيلي أنا آه مخدتش المركز الأول، لكن الحمد لله أنا شاركت وخدت تكريم جميل، وجائزة صغيرة جائزة المركز الثالث، الحمد لله أنا هحضر شنطتي بسرعة وأسافر لعمتي، ادعيلي يا دكتورة، ادعيلي إنها تكون متيقظة إلى حدٍ ما، وتسمع مني الموضوع ده، وهي بتجري علشان تطلع على السلم جالها تليفون وقفها، وانزعجت جدًا من التليفون ده، وجريت بسرعة على فوق بشكل ملفت للنظر يعني تقفز على السلالم قفزات سريعة جدًا.

قالت لي: "يا دكتورة أنا هسافر، لأن أخويا بيقولي عمتي حالتها الصحية اتدهورت، واضطر ينقلها إلى المستشفى أثر سقوطها من على سلم البيت محاولةً منها إنها تخرج، مش عارفة أقول لحضرتك إيه! الزهايمر ده لعنة لعنة، فنقلها إلى المستشفى، لكي يجبس لها رجليها التي كُسرت، الحمد لله أنها لم تخرج من البيت، ولا نتوه ولا يجرالها حاجة، السلام عليكم."

وخرجت سارة تجري، وغابت علينا أكثر من خمسة عشر يوم، ولا حس ولا خبر ولا تليفون ولا زميلاتها يعرفن عنها شيئًا كان الاتصال بها؛ محاولةً منهم أن يعرفن موعد عودتها، لأنهن أردن الاحتفال بها، بعدما استقرت الأمور والكل عرف أن المشكلة التي كانت تعاني منها سارة هي لحظة يأس، كانت لحظة انهيار بنوتة شابة، كانت تحلم أنها تشارك في المسابقة، ولكن سارة لم ترد على التليفون، بعد حوالي خمسة وعشرين يوم أو أقل قليلًا، سارة دخلت من باب البيت والحزن يعتريها، ودخلت، وحكت لنا المشكلة اللي عندها.

ما استطاعت تفرَّح عمتها مع الأسف، عمتها تعبانة جدًا، واضطر الدكتور إلى احتجازها بالمستشفى نتيجة المرض المصابة به، لا أستطيع أن أصف لكم الحزن الظاهر على وجه سارة، صعب ومرير أن تمر شابة صغيرة بتجربة كهذه، ولكن تمكنت فعلًا أن تتجاوز الأمر، وتخرجت سارة بعدما مكثت عندنا في

البيت حوالي ثلاث سنين وشوية، والنهاردة دخلت سارة مرة تانية، ووجهها مبتسم من باب البيت بعد أن صدر لها كتابًا أول من القصص القصيرة، وكانت زيارتها لتقدم لنا هدية ونسخة لي من الكتاب، أنا سعيدة أن سارة تجاوزت محنة واثنين وثلاثة. الله عليكِ يا سارة، شابة قوية وقادرة على تجاوز محن كانت أكبر من سنك وجميل جدًا محاولة صبرك عليها، حقًا قد تمكنت سارة من تجاوز سجن الأوراق المحترقة.

تمت

(٥)

خدعني أبي

أتت الخادمة بفنجان القهوة التركية، وتسللت رائحتها الذكية المطعمة بتحويجة رائعة؛ فانتبهت للوجه الأسمر باسم الثغر المنحني أمامي لوضع الصينية، وتقديم فنجاني المحبب لي ولكنها ليست خادمتي؛ فابتسمت لسماع مداعبة الشابة الرقيقة أنها إحدى نزيلات البيت التي قالت بصوتٍ منخفض مرح:

- "تسمحي لي أن أشاركك فنجانك الصباحي المعتاد، وكمان أشرب معكِ فنجاني".

وقبل أن أرد قالت: "عارفة إن هذا وقتك الخاص جدًا، ولا تسمحين كثيرًا لاختراق لحظة تأملك هذه، لكن الأمر جاد وليس لي ملجأ سواكِ"

أومأت برأسي بالقبول.

فجلست مبتسمةً: "حضرتك عارفة إني وحيدة والدي، من يومين بس عرفت إن ليا أخوات، حرمني أبي منهم، وكل جريمتهم من وجهة نظره أنهم اختاروا أن يعيشوا مع أمي، هو ده عدل يا دكتورة؟ هل العدل أن أُحرم من أخواتي؟ ولا أعرفهم إلا صدفة في الجامعة"

ثم انفجرت بالبكاء، صدمتني كلماتها وعُقد لساني وعلت الدهشة وجهي، كيف لأبٍ أن يفعل ذلك بأبنائه؟ كيف طاوعه قلبه أن يفعل ذلك؟

ارتبكت في بادئ الأمر، ثم تمالكت نفسي لكي أهدئ الشابة البريئة.

الدكتورة: "كفاية يا بنتي، اهدئي، واحكي لي بتأني، متى حدث ذلك ولماذا؟ وكيف عرفتي أخواتك؟ وهل واجهتي والدك بذلك؟"

جففت دموعها وحاولت التحدث، تعثرت في بادئ الأمر ولكنها تمالكت أعصابها وبدأت الحكي...

"عندما كنت صغيرة كنت دائمًا أسأل والدي: لماذا ليس لدي أم مثل زميلاتي وزملائي بالمدرسة؟ كان يتهرب من الإجابة، ولا يجيبني أبدًا، طالما سألت عمتي وقبلها جدتي وكانتا دائمًا تتنهدان وتحتضناني كنوع من المواساة، ومحاولةً منهن لكي أنسى بحثي عن ردٍ لسؤالي، ودائمًا ينتهي الأمر باللعب والمداعبة حتى أنسى، ثم أنام. وعندما كبرت قليلًا تجرأت وسألت أبي، هل حدث لأمي ما حدث لجدتي؟ فقد ماتت جدتي بعد معاناه مرضية"

رد قائلًا: "لأ، لم تمت أمك وتعثر بالكلام."

"ولم يشرح لي أي شيءٍ، صمت ودخل مكتبه كالعادة، ولم يهتم بندائي له؛ لكي يخبرني بالحقيقة، وتركني مع عمتي، ولم يمر الأسبوع إلا وقد سافر أبي لعمله ثم أرسل لعمتي خلال شهر ليأخذني خارج مصر، وأكملت دراستي حتى الثانوية في هذا البلد العربي، ولم يجيب أبي على أسئلتي، فقط كنت أنا حياته، وشغله الشاغل مع عمله، قدم لي كل الحب الأبوي، الحنون والعطف وكل ما تتمناه طفلة من أبيها، وحين صممت على العودة لمصر كدنا نختلف معًا، ولكنه ردخ لطلبي ووافق وبالفعل عدت والتحقت بالجامعة هنا بالقاهرة،

وتفوقت بدراستي بالكلية عامًا بعد عام مما جعل أبي غير معترض على بقائي هنا، وتأكد أنني على قدر ثقته بي ولكن بالأمس القريب عرفت من زملاء الكلية أن هناك زميلة جديدة منقولة من جامعة المنيا تشبهني تمامًا وهي معنا بنفس القسم كيف ذلك؟! وحين رأيتها تعرفت هي عليَّ، وصُدمت حينما علمت أنها شقيقتي التوأم، كيف لها أن تعرفني وأنا لا أعرفها؟

ثم حكت لي القصة كاملةً كما عرفتها من أمي الحزينة على فراقي، واختفائي من حياتها، فقد اختلف أبي وأمي في السابق والخلاف تطور، وتم بينهما الطلاق، ولم يقبل والدي أن تأخذنا أمي منه لأننا صغار، فأخذني وحدي ظنًا منه أن أختي المصابة بالمستشفى لن يُكتب لها الحياة، وترك البلدة واختفى من المنيا تمامًا، وأكد على جدتي وعمتي ألا تتحدثا عن أمي أمامي أبدًا، وأغلظ في ذلك بأيمانٍ شديدة؛ مما أجبرهن على حفظ ذلك الأمر وإخفائه عني طوال تلك السنوات ،ولم يكن أبي وأمي يعلمان أنها حاملًا في أخي الصغير، ونجت أختي وكُتبت لها الحياة، وعاشت مع أمي وأخي الصغير بالمنيا، هل هذا عدل؟ أُحرم من أمي وأخوتي، كيف لأبي أن يكون بهذا الظلم والقسوة؟ لقد خدعني، كيف لي أن أسامحه؟"

نظرتُ إليها بحيرة كبيرة، ثم قلت لها: "هناك رأي لي أقترح عليكِ محاولة تقريب أختك، وأخيكِ من والدك لعل هذا يكون وسيلة لجمع شمل الأسرة مرةً أخرى، ربما يظن والدك أنه لم ينجب غيرك، وربما حين يتعرف على أخوتك؛ يرق قلبه وتذوب أحجار غضب الماضي وتعود أسرتك معًا، ربما يا ابنتي حاولي لن تخسري شيئًا."

هدأت قليلًا، وفكرت ثم قالت: "فعلًا في أجازة بابا السنة دي هعمل المحاولة دي وربنا يساعدني، المهم أنا نفسي أشوف ماما ينفع أعمل كده؟ ولا بابا هيغضب عليَّ ويزعل مني؟ مش عارفة بس نفسي أشوفها"

ثم أمسكت يدي وقالت: "أعمل إيه يا دكتورة؟"

ابتسمتُ لها قائلةً: "خلي أختك تمهد للأمر أولًا، ولحين أجازة والدك كلميها مكالمات فيديو، وربنا يصلح لك الحال"

جففت دموعها ووقفت، وأومأت برأسها للموافقة على كلامي، ثم انصرفت لحجرتها، ولم تتحدث معي بهذا الأمر لمدة طويلة حتى جاءت في يومٍ بعد الكلية تخبرني بأن أبيها جاء من سفره لأجازة قصيرة لحضور عيد ميلادها، وبتستأذن تعمله هنا في الحديقة؛

حتى تتمكن من دعوة أمها، وأخواتها ليكون اللقاء طبيعياً ويحافظ على كرامة الجميع.

وافقت طبعًا على ذلك، وكان حقًا حفلًا بسيطًا، وجميلًا ساعدها زملاؤها في السكن وكذلك بالكلية في تجهيز الحديقة، وتعليق مظاهر عيد الميلاد، وإعداد الحلوى المناسبة للاحتفال وشراء ما يلزم لذلك أيضًا، وكان لقاءً هادئًا، فقد ندم الكهلان على ما حدث في الماضي، ودمر العائلة مر بينهما عتاب عابر، خاصةً من الأبناء لهما، ومر اليوم بسلام وقررت الشابة الجميلة مغادرة الفيلا بعد نهاية هذا الفصل الدراسي؛ حيث سيُجمع شمل الأسرة جميعًا بالقاهرة؛ فلم يعد هناك أي سببٍ لغربة الأب، أو فرقة الأبناء، والحمدلله أنهم جميعًا تجاوزوا هذا الأمر لحدٍ ما.

هدأت الفيلا تمامًا، وانصرف جميع الحضور لمنازلهم أو حجراتهم بالدور العلوي، وبقيت خادمتي تنعي حظها العاثر الذي أبقاها وحيدةً؛ لتنظيف فوضى هذا الحفل، وهي تقول: "أه أه ستجدين الراحة في عملك عند الدكتورة، هكذا خدعني أبي رحمه الله."

تمت

(٦)

فضل عويس العيسوي

إنه الغروب، يا له من مشهدٍ رائع بالسماء! ألوانه تطل بنعومة هامسة تستدعي الذكريات من أعماق نفسي لتذكرني بأيام الماضي القريب وقت السحر، ورائحة الياسمين العابرة من الحديقة عبر الشباك الكبير، ولكن ما هذا؟ من هي؟

وقفتُ لأقترب من الشباك لأرى جيدًا ما هذا الذي يقطع رؤية هذا الجانب من الحديقة؟ ومن تكون هذه الشابة التي تقف هناك بالقرب من أحواض الورد البلدي؟ إنها إحدى نزيلات البيت، إنها طالبة كلية الفنون الجميلة، أجل عرفتها، وهذه أدوات الرسم وحامل لوحاتها، ولكن ماذا ترسم وماذا في حديقتي في هذا التوقيت

يجذبها للتركيز هكذا؟

أخذتُ أسأل نفسي كل هذه الأسئلة؛ حتى انتبهت الشابة لوقوفي أتابعها من الشباك؛ فابتسمت وبدأت في جمع أدواتها مع تمام غروبِ الشمس، وإسدال ستائر الليل، ثم دخلت الفيلا من الباب الرئيسي، وتوجهت إليَّ لتلقي تحية المساء.

"مساء الخير يا دكتورة"

"مساء النور يا بنتي"

نظرت إليّ الشابة وعيناها حائرتان وسألت: "حضرتك زعلتي مني لأني رسمت في الجنينة، لكنني لم أتلف شيئًا"

ابتسمت لها قائلةً: "لا"، لم أغضب بل أسأل ماذا رسمتِ؟

ردت بفخر مبتسمة وهي تقول: "رسمت بطل لوحاتي لهذا العام، رسمت عم فضل الجنايني"

علت وجهي الدهشة وسألتها: "عظيم، أين الرسومات؟ اريني إياها"

زادت بسمتها على وجهها قائلةً: "حالًا، هغسل إيدي من الألوان وأرجع فورًا."

وقد كان، في دقائق عادت الشابة إليَّ وقد أزالت عن وجهها ويديها آثار الألوان وبدلت ملابسها لملابس البيت وبدأت تعرض عليّ ما رسمت، كثير من اسكتشات القلم الرصاص، والأقلام الملونة لأوضاع مختلفة لوجه فضل الجنايني، وأخرى له وهو يعمل بأحواض الزرع، ولوحة خاصة وهو جالس لتناول الشاي في فترة الراحة، وأخرى أصغر في المساحة له وقد غلبه النوم وهو جالس يستند لحائط حجرته الخارجي.

تعجبتُ من دقتها بالعمل الفني وكفاءتها أيضًا في تسجيل تعابير وجهه التي ظهرت كعلامات للزمن تروي قصته عبر الألوان، نظرت بدقة وتمعن في تلك اللوحة التي يبدو فيها فضل منهك القوى، ويستند بظهره على الحائط وقد غطت عمامته جزءًا من عينيه عندما سقطت عن رأسه على وجهه جراء الاستناد حين غلبه النوم.

سحبت تلك اللوحة صورًا عدة من شريط الذكريات في وجداني، وذهبت بذاكرتي لزمنٍ بعيد نسبيًا، حيث ظهر لأول مرة عم عويس حين جاء من الأرياف بصحبة أحد البوابين من شارعنا وسأل عن والد زوجي رحمهما الله، وحين قابلهما حماي تكلم البواب وقال: "الجنايني يا سيادة المستشار اللي كلمت حضرتك عنه، ده عويس من بلدنا وشاطر وبيفهم جدًا في الزراعة."

ومن اليوم ده وعم عويس بيزرع الحديقة ويرعاها، وكان حبيب حمايا جدًا، لأنه كان محافظًا على الورد والزهور في الجنينة، وكمان يقدم الورد صباح كل يوم له قبل ما يخرج، وفعلًا كانت الحديقة أيام عم عويس متقسمة حلو جدًا، ومتحافظ عليها وكان معاه كمان أولاده: "فضل، وفاضل، وفضيلة".

كان حريصًا أن يعلمهم القراءة والكتابة، فعلًا كانوا بالمدارس لكن الزمن رسم لكل منهم طريقه، "فضيلة" كانت أصغرهم وأحبت التعليم، وكملت مدرسة المعلمات، وتزوجت من بلدهم ورجعت البلد، نادرًا لما بتيجي الأيام دي بحكم مسئوليتها وأولادها وشغلها.

أما "فاضل" فتطوع بالجيش وكمان اتجوز ويعيش مع أسرته بالمرج.

أما "فضل" وهو أكبرهم كان يحب الفلاحة، ويمكننا القول أنه ورث المهنة من والده، واستمر بالعمل عند عائلة زوجي، كان يعتبرهم عائلته كما رباه والده، كان في شبابه يغني وهو يزرع الحديقة، يغني وهو فرحان كأنه بالعيد.

"فضل" أصبح من العلامات الواضحة لزمن فات على الفيلا، زمن الناس الطيبة اللي سمرت الشمس لون بشرتهم، بحب لضوئها والأرض ووردها، كُتبت أغانيها على جبينهم، زمن كتب قصته بتقسيمات التجاعيد العمرية في وجوههم بين

عيونهم، ووسط صور الذكريات، سمعت صوت البنوتة الهادئ بتسألني: "إيه رأيك يا دكتورة؟ عم فضل فعلًا يستحق يكون بطل، رسومات مشاريعي في الكلية السنة دي، لكن حضرتك سرحتي في إيه؟ احكي لي حكاية عم فضل."

رددت عليها: "عندك حق هو يستحق بطولة لوحة تحكي سر ثمرة الأرض، وخضرتها ووعد الخيوط الذهبية للشمس لتزهير زهرتها، وصوت الميه وهمستها لشجرة مورقة وثمرتها، تعالي نتعشى دلوقتي، ونكمل كلامنا بعد العشاء."

وفعلا خلصنا العشاء وكانت السهرة مع البنات على حواديت عائلة عم "فضل عويس العيسوي"، وكانت بطولاته بالنسبة لي أنه رغم بساطته إلا أنه عرف يربي بنته الوحيدة، ويوصلها لبر أمان زي ما تعودت منه أنه يقول ذلك دائمًا: "العلام بر أمان يا هانم"

بنته كملت تعليمها وتخرجت من كليه التربية، والآن مدرسة لغة فرنسية بمدرسة ثانوي، أما البنات منهم من كانت تخاف جدًا من عم "فضل"؛ لملامحه الجادة وشاربه الضخم، ومنهم من كانت تشفق عليه لكثرة عمله وكبر سنه رغم شغفه الواضح بالعناية بالحديقة، ومنهن فنانتنا الرقيقة صاحبة اللوحات التي رأت في عم "فضل" ملامح المصري الكادح الأصيل.

وطبعًا لما تأخر الوقت، أنهيتُ بنفسي هذه السهرة الطويلة قائلةً: تفضلن على حجراتكن يا بنات، الوقت تأخر ولديكم دراسة الصبح." ولولا كلامي هذا لما انتهت هذه السهرة لطلوع الفجر لكنها تكررت مرة أخرى، ولنفس السبب، عم "فضل" لأن، صورة وجهه فازت بها الطالبة في هذا العام بجائزة مميزة جدًا في الفن التشكيلي في مسابقةٍ ما، وكانت الجائزة مالية، أخذتها الشابة الراقية وأهدتها إلى عم "فضل" ظنًا منها أنها من حقه، والحق يُقال أنها رسمت بتصرفها هذا الفرحة في عيون هذا الشيخ الكبير، الذي انزعج خوفًا من ضوء فلاش الكاميرا وهي

تلتقط له صورةً وهو يضحك، ويضم الصورة والجائزة معًا بيديه السمراء، وتعالت الأصوات حوله "مبروك يا "فضل".. مبروك يا "فضل"."

تمت

(٧)

شجرة الياسمين

كل يوم الصبح تجلس بجوار تلك الشجرة، أو تُشرد وهي تنظر إليها من بلكونة حجرتها، تُرى ماذا يميز هذه الشجرة إلى هذا الحد؟ ده الحديث الهامس الذي دار بين بنتين من البنات، وسمعتهن خادمتي؛ فضحكت لهن وتعجبت، وحدثت نفسها ولكن بصوتٍ مسموع "تُرى لماذا تهتم البنات كل هذا الاهتمام، بل بمراقبة الدكتورة؟! أليس لها كامل حريتها تنظر لما تحب أو تاركةً لذهنها العنان لتسرح به في ذكرياتها، حاجة غريبة البنات دول"

سمعتها الفتاتان وقالتا بسرعةٍ: "لا لا يا دادا إحنا منقصدش، إحنا بس مستغربين، ولماذا تبقى الدكتورة وحدها في صمتٍ كما لو كانت ترفض الاندماج مع من حولها بالحياة؟"

تنهدت الخادمة وقالت: "الدكتورة ست طيبة، وحبوبة، ونجولة كانت متزوجة من رجل أعمال من عائلة كريمة محترمين جدًا، تزوجته وهي صغيرة لم تكن تعرف من الدنيا غيره كان أبًا، وزوجًا

لها، عرفت الدنيا من خلاله وكان هو وأولادها كل حياتها وعالمها استمر زواجهما أكثر من أربعين سنة، وبوفاته وزواج أولادها أصبحت وحدها، في الفترة الأولى كانت تقرأ دائمًا في حجرة المكتب أو في مكانها المعتاد بجوار البيانو، ظننا جميعًا أنها تحاول التغلب على آلام فراق الزوج بهذه الطريقة إلى أن بدأ أكلها يقل، واستقبالها لأي خبر سارًا، أو حزينًا يكون بالصمت فقط تحرك رأسها بالعلم، وتعود لصمتها مرةً أخرى.

لاحظنا عليها أنا والجنايني والبواب والسواق ذلك، تعجبنا كيف تتحول هذه السيدة الطيبة المرحة الحنونة إلى هذه الحالة؟ هل هو الحزن؟ ولطول عشرتي بها ولأنني أعرفها كويس أبلغت أبناءها بحالتها وبدورهم بدأوا يزودوا زيارتهم لها بدلًا من مرة يوم الجمعة والتي كانت لها لحظة ابتسامة اختفت بمرور الوقت، أصبحوا يترددون عليها في وسط الأسبوع بالتناوب إلى أن فكر ابنها في فكرة إيجار الدور العلوي حتى يشغل لها حياتها التي خلت من حولها وبالفعل تم تنفيذ المشروع، وأنتم مليتوا البيت عليها.

تمام يا دادا، اعملي لها المشروب الدافي بتاعها، وهاتي إحنا هنروح لها نتكلم معها شوية.

تحركت الخادمة إلى المطبخ؛ لإحضار المشروب الدافئ، وتوجهت البنات لمكان جلوس السيدة الهادئة، شاردة النظرة للتحدث معها، وقفت إحداهن بالقرب منها، وتنحنحت لتنبهها أنهن واقفات لجوارها ولكنها لم تنتبه لهن، ولكن عندما أتت الخادمة ومعها المشروب المحبب لها، وهو الشاي الأخضر بالنعناع، وتصاعدت رائحته، انتبهت السيدة لها وهي تقول: "اتفضلي الشاي يا دكتورة"

ابتسمت الدكتورة منتبهةً لوجود البنات وقالت: "تسلم إيديكِ يا زينب، خير البنات واقفين كده ليه في حاجة؟ عندهم مشكلة تخص السكن؟"

زينب: "أبدًا يا دكتورة دول كانوا بيطمنوا عليكِ، وعاوزين يتكلموا معكِ"

الدكتورة: "اتفضلوا يا بنات نتكلم في الأنتريه"

وقامت تتحرك باتجاه البنات ليتوجه الجميع إلى الأنتريه، ثم قالت: "حضري شاي للبنات يا زينب"

وجلس الجميع، وبدأ الحديث بسؤالها لهن: "خير يا بنات"

تحدث أحدهم واسمها نيڤين قائلةً: إحنا دائمًا نراكِ بين الكتب، أو في لحظات تأمل وشرود، نظرك معلق بتلك الشجرة بالحديقة "شجرة الياسمين" لا نقصد التدخل أو اقتحام حياتك، لكن إحنا بنحبك زي أمنا، ولا نريدك وحيدةً، إحنا موجودين معاكِ، احكي معانا في حد مننا مزعلك أو تسبب لكِ بمشكلة؟

تناولت السيدة رشفة من الشاي ثم قالت: "أبدًا يا نڤين يا حبيبتي، أنا كمان بحبكم أنتم بنات محترمات، وأنا سعيدة بوجودكن هنا، أنتم أعدتم لي الحياة مرةً ثانية، لكن عالم الذكريات له سحر خاص على صاحبها"

"احكي لنا يا دكتور للدرجة دي الشجرة والكتب لهم معاكِ كل الذكريات اللي تأخذك بالساعات من الدنيا كلها بالشكل ده"

هكذا ردت مسرعةً الشابة الأخرى، وتسمى سارة.

"أجل يا سارة يا ابنتي، شجرة الياسمين دي زرعها زوجي لي في أول زواجنا لأنني أحب هذه الزهرة وأعشق عطرها، وفي الكتب أجد سلوى لي؛ فهي تعتبر أصدقاء لي أما الكتابة والرسم أحيانًا أجد فيهم متنفس لي، أحكي ما بداخلي"

نيڤين: "كنتِ بتحبيه يا دكتور؟"

"حب، الحب له معانٍ كبيرة وكثيرة، أعمق من كلمة نقولها"

سارة: "الحب، هو الحب والاختلاف فيه ده مجرد فرق الزمن"

ابتسمت وقلت: "لأ يا سارة، الحب الحقيقي مش كلام حلو ورغبة أو سعادة لحظة، الحب إحساس لا يترجمها الكلام، بل تحسه القلوب وتتابع به المشاعر، لم يقل لي زوجي كلمات الحب المزخرفة الناعمة، ولكنه كان يعبر بأسلوب آخر، كان يحترم بيته ويحترم طموحي وشغفي بالعلم والعمل، حقًا كان صارمًا، جادًا لا يعرف للمرح طريقًا"

نيڤين: "وهو كده يكون بيحبك؟ ده كده نكد"

السيدة: "لأ يا نيڤين، كنت فاكرة كده وأنا شابة تتمني سماع كلمات جميلة تُطرب لها الأذن، ويُسعد بها القلب ولكن مع الزمن تأكدت أن الأمان والاستقرار أيضًا نوع من الحب، فهو كان يحبني بأسلوبه الخاص، تحقيق أحلامي كان من وجة نظره حبًا، تنفيذه لرغباتي، واحتياجات الحياة والأولاد كان يقدمها لنا بحب، ده الحب اللي يعيش معاكِ لآخر العمر، ومن الصعب يخرج من قلبك، أما تسالي الأيام دي اللي بيقدمها الشباب عمرها ما تكون حب أبدًا يا بنات، الحب أصدق حقيقية بيكدب بيها الشباب،

أصحاب العقول المريضة والقلوب الميتة على البنات الطاهرات، إياكن والسقوط في براثن الكذب المعسول، حبيباتي الصغيرات، ابنين حبكن كصرح قوي لمن يستحقه حتى لا يهدمه الزمن حتى اسألوا شجرة الياسمين هيسمع قلبك همسها باسم الحبيب الغائب عنا بجسده، ولكنه حي في قلبي، ووجداني، وحين يرزقن الله بحب صادق نزيه، تمسكن به وازرعن شجيراتكن الخاصة لتحمل سركن الصادق بين أغصانها، وتورثه بعدكن لأحباءٍ آخرين"

قلتُ للبنات الكلام ده، ودموعي تملأ عيوني على غياب حبيبي الذي كتب لي الله أن أعيش بذكريات لم أكن أفهمها حينها، ولاحظت سارة ونيڤين ذلك التي قالت ياه للدرجة دي بتحبيه يا دكتورة؟ ابتسمت وأجبتُ: "لسه بتسألي؟" ثم وضعت فنجان الشاي، وعدتُ لمكاني أمام الشباك أتحدثُ سرًا مع شجرةِ الياسمين.

تمت

(٨)

العمة سوسن

مرت الأيام متتالية وكل شيءٍ بالبيت هادئ لحد كبير، ازدادت معاملتي مع البنات نزيلات السكن كلهن، حقًا مهذبات، إن هذا الجيل يحمل خصالًا تختلف عن جيلي تمامًا، بعضهن ذات عقليات راجحة ترسم مستقبلها بصورة عملية دقيقة، وتسير على خطة محددة لمستقبلها مع حساب بعض الاحتمالات، وطرح حلولًا لها والبعض تكون خططه مختلفة تحمل قليلًا من المسئولية، ولكنها مدروسة بنمط مختلف قليلًا.

وتوطدت علاقاتي بهن حتى أصبحن جزءًا من حياتي، وأهديتُ لهن جميعًا مشاعر الحنان والأمومة، كل واحدة حسب احتياجها من هذه الأمومة، وأصبح غروب يوم الأحد من كل أسبوع لقائي معهن في برجولة حديقة القصر التي كادت تُهجر من غياب روادها بعد زواج أولادي،

وأصبح إعداد "زينب" للكيك والشاي بهذا التوقيت علامةً مميزة لهذا اليوم، كنا نتجاذب الحديث ونتبادل الآراء والحوارات لما يقرب من ثلاث ساعات أحيانًا وطبعًا تلعب "زينب" دور البطولة الأساسي بيني وبينهن، أحكي لهن ذكريات عن القصر والشارع وكيف كان؟ ومتى تحول الشارع من الهدوء للصخبِ وكيف توارى النيل عن رؤيتنا له؟ بسبب تلك الأشباح الخرسانية من العمارات التي ملأت الشارع بعد أن باع ورثه ملاك الفيلات والقصران بشارعنا تلك الرموز المعمارية للشارع، وأصبح شارعنا يضم عددًا كبيرًا من المحلات التجارية التي تزعجني كثيرًا بضوضائها أو..، تجذب "زينب" الحديث من إحدى الفتيات بجملةٍ اعتراضية تجعلها مضطرة تحكي سبب تأخرها عن الكلية اليوم الفلاني أو تأخرها في الكلية من كام يوم وكانت "زينب" رغم كل تلك الثرثرة محبوبة منهن جميعًا، فقد كانت سعيدة بخدمتهن وخدمتي رغم كثرة الحمل والضغوط عليها، لكنها كانت تنشر حبها لهن في المكان كله، وترعَهن معي رعايةً كبيرة، أسعدت جميع البنات

اللاتي غابت منهن اليوم "سارة"، وتأخرت عن موعد حضورها من الجامعة.

حاول الجميع الاتصال بها تليفونيًا، ولكنها لم تجب مما آثار قلقي جدًا، تجاوزت الساعة الثامنة مساءً، زاد قلقي عليها وتحول لمخاوف ودارت الأسئلة الاحتمالات المزعجة المخيفة في رأسي كأنها جيوش النحل تتسارع وتزن بضوضاء مرعبة، وهُدم مرح سهرنا تمامًا، وأصبح الجميع في قلق شديد حتى دخلت علينا من باب الحديقة، وهي منهكة القوى، ولسان حالها يروي فاجعةً مكتوبة على وجهها، صمت الجميع لرؤيتها بهذه الحالة، وساد الصمت تمامًا فجأة حتى وصلت إلينا بالبرجولة التي تطل على حمام السباحة الذي يتوسط الجناح الأيمن من الحديقة، وما أن اقتربت أكثر حتى تكلمتُ قائلةً: "سارة مالك!

خير يا بنتي؟ ليه اتأخرتي كده؟"

هزت سارة رأسها وقالت: "الحمد الله على كل حال" وجلست تلتقط أنفاسها وتشرب كوبًا من الماء قدمته لها زينب، وهي تربت على كتفها وتقول: "أنتِ كويسة وبخير؟"

سارة: "الحمدلله يا زوزو أنا تمام، هطلع أغير هدومي، وأحكي لكم كل حاجة الصبح لأني تعبانة جدًا، واحتمال مقدرش أروح الجامعة بكرة"

أنهيتُ الحوار، والتوتر ظاهرًا في كلماتي لهن جميعًا: "تصبحن على خير يا بنات، اذهبن لحجراتكن الآن"

وبدأت "زينب" بترتيب المكان وإعادته لصورته المنظمة قبل حفل السمر الأسبوعي – الذي أحاول أن أحدثهم فيه باللغة العربية إحيائها - الذي دُمر هذا الأسبوع، والقلق يملأ وجهها يمكن أكثر مننا كلنا على سارة، ويعلم الله وحده كيف مرت هذه الليلة علينا؟ وفي الصباح خرجت كل البنات للكليات أو العمل وبقيت سارة معنا أنا وزينب في البيت، ونزلت علشان تفطر وبعد ما جهزت "زينب" لها فطورها المعتاد من التوست

المحمص، والجبن الكريمي مع كوب البرتقال الطازج، وجدتها أمامي تحمل كوبًا كبيرًا من الشاي وتناديني: "ماما"

التفت إليها ونظرتي تحمل أسئلة الأم الخائفة على ابنتها وقلتُ: "تعالي طمنيني عليك"

ولمحت "زينب" تتقدم بفنجان الشاي الأخضر خاصتي، فطلبت منها البقاء معنا، وبدأت سارة تتكلم وتقول: "اتصلت بنت عمتي قصدي بنت طنط سوسن؛ طنط سوسن ابنة خال والدي، تعودت من صغري أقول لها عمتو، كانت صديقة أمي المقربة إليها في الجامعة وفي خطبتها تعرفت على والدي وتم زواجهما وطول عمري أعرف أن صداقة ماما وطنط سوسن مستمرة على خير، وعلاقتهما ممتازة، مرت بهما في الحياة مواقف كثيرة، الصعبة والسهلة والمرحة والحزينة من تجهيزات جواز، وانتظار الحمل وصعوباته للولادة، لسفر والدي وغربته ووفاة الأجداد، والآباء وكانتا معًا دائمًا لقرابتها لوالدي، وحميمية الصداقة لوالدتي، وكانت عمتو سوسن دايمًا تهون على

ماما المشاكل والصعوبات، حتى توفى زوجها بسبب الكورونا، وطبعًا العزل باعد بيننا وبينها ماعدا الاتصالات التليفونية حتى عادت من مدة قريبة الزيارات تاني، اتصلت عليّ ابنة عمتو سوسن لأنها تعبانة جدًا وطلبت لها الإسعاف، وإنها في المستشفى الآن وحدها، ومع الأسف لم يكن معها سيولة مالية كافية لحساب المستشفي، تركت الكلية وذهبت إليهم.

تركتُ الكلية وذهبت إليهم، وتعاملتُ بعد إبلاغ والدتي بما حدث، وسمحت لي بالتعامل المالي مع الموقف لحين وصولها من الإسكندرية إلينا، حيث نعيش بمنزلنا هناك بسبب شغل والدي، طنط سوسن ما زالت بالعناية المركزة وحالتها سيئة والسبب عرفته من بنتها قد نشب بينهما خلافًا على رفضها لعريس تقدم لخطبة بنتها، طنط سوسن تراه غير مناسب، وبنتها اتهمتها أنها تريدها أن تبقى بجانبها حتى لا تعيش وحيدةً، استغربنا جدًا من الكلام ده، واعترضت والدتي على تصرف

وكلام البنت، وحاولت تنصحها لكنها لم تستمع وطلبت مني والدتي أوصلها البيت، وأترك أمي مع عمتي، وأرجع هنا علشان الكلية، وبالفعل تحركنا متجهين لمنزل طنط سوسن، وللأسف وأنا سايقة السيارة كانت ابنة عمتي تتكلم بغضبٍ وصراخ، جعلني أتوتر جدًا مما أدى لحادث بسيط، دخلت في طريق التراب منحرفة عن الأسفلت، ولكن تداركت الأمر وفرملت بسرعة، وكنت لابسة الحزام الحمدلله، فعدت بخير وكنت متوترة جدًا، وصلتها للبيت ورفضت أطلع لكنها طلبت أنتظرها هتجيب حاجات لأمها، وتعود للمستشفى، وافقت طبعًا ولكننا كنا صامتين تمامًا بعد ذلك فهي تعرف رأيي في الشاب الذي تحدثت عنه مع عمتو سوسن أنه حقًا غير مناسب لها، فاشل بدراسته، متعب جدًا لوالديه، لم يستجب للعمل في أحد مشاريع والده، أو تجارته، هو فعلًا مصدر إزعاج لمن حوله مستهتر جدًا، ثم تركتها أمام المستشفي وضميرها يأنبها لما فعلته بأمها وبي كادت تودي بحياتنا، ثم عدت إلى هنا، أعتذر لكم تسببتُ أنا وأهلي بتوتركم، واضطرابكم"

تنهدت "زينب" وقامت تتمتم: "الست سوسن هتقطع نفسها علشان تربي بنتها، وتسعدها بعد موت أبوها، والبنت أعوذ بالله عاق لا حول ولا قوة إلا بالله" فنظرتُ إلى سارة قائلةً: "ربنا يحميكِ ويكملك بعقلك، كملي الشاي وروحي المستشفي يمكن يكونوا محتاجينك، وارسلي سلامي للعمة سوسن."

تمت

(٩)

صفاء

تمر الأيام سريعةً متلاحقة بعضها متشابه، والآخر يحمل الإثارة تارة، ونشاطًا هادئًا تارة أو توتر وإزعاج وضوضاء، لكن اليوم مختلف تمامًا اليوم آخر البنات حزمت حقائبها، وأمتعهتا بعد نهاية امتحانات الفصل الدراسي الأول، وذهبن جميعًا لقضاء أجازة نصف العام مع أهلهم وذويهم، فرغ البيت من نزيلاته، وعاد لهدوءٍ نسبي؛ حيث بقيت معنا صفاء، أكبر النزيلات سنًا؛ فهي ليست طالبة بالجامعة، هي موظفة كبيرة، ومسئولة بأحد البنوك الاستثمارية، أتت لنا بعد رفع الإعلان بيوم واحد، هي شخصية لطيفة وعقلها راجح أحبتها الفتيات من نزيلات البيت، وكنت دائمًا أراهن يُقبلن على التحدث معها، ويستشيرونها في أمورهن كثيرًا "صفاء رشيقة، وأنيقة تتمتع بحسن المظهر، وبهاء الطلعة" ولكن عيناها تخفي حزنًا، وسرًا بحياتها لم تفصح لأحدٍ عنه، تحمله بقلبها وحدها، دخلت اليوم من الباب بعد موعد عملها بقليل، تحمل

بيدها بروازًا لصورةٍ، مغلف بالورق، انتبهت "زينب" لذلك، ونظرت لها متسائلةً: "صورة لحجرتك، إيه منظر طبيعي، ولا أنتِ كمان بترسمي؟"

ابتسمت صفاء وقالت: "لأ، دي صورة زوجي رحمة الله عليه"

علت الدهشة وجوهنا لم نكن نعرف أنها أرملةً، كنا نظنها آنسة، ابتسمت صفاء و قرأت الدهشة في عيوننا، وردت دون أن نسألها عن شيءٍ، فالأمر شخصي تمامًا ولا يليق بنا إقحام أنفسنا في خصوصياتها، ولكنها قالت: "مش هتغدينا الأول يا زينب، ومع الشاي بعد إذن الدكتورة نحكي كل حاجة"

والتفتت لي وأكملت كلامها: "طوال الفترة الماضية، كنتي مشغولة يا دكتورة بالبنات الأخريات، ولم يأتي وقتًا مناسبًا، نتكلم فيه مع بعض عن أي شيءٍ يخصني"

ابتسمتُ لها وقلت: أنتِ أختي الصغيرة يا صفاء، وهتلاقي وقت في أجازة نصف العام للتحدث معًا"

صفاء: "تزوجت أمي بعد وفاة والدي، وكان عمري عامين، عشنا في بيت زوج أمي في محافظة أخرى، وكان نعم الأب لي، لم يحرمني طوال حياتي من أي شيء، وكان يعاني من مرض يمنعه

من الإنجاب، ومع العلاج لفترة طويلة شفاه الله وعافاه، وتمكن من إنجاب توأم حفظهما الله، وكانت سعادته كبيرة، وكذلك أمي التي خافت عليّ أن تتغير معاملته لي، كنت فقط أشعر بالإحراج وأنا في المدرسة كلما سألني أحد، لماذا اسمي مختلف عن اسم أبي؟ أقصد من أظنه أبي، فقد كنت أناديه بابا فأنا لا أعرف أبًا غيره

حتي حكت لي أمي كيف مات والدي بعد معاناه مع سرطان المعدة وهو بعز شبابه كيف حزنت عليه، رغم لومها له أنه لم يصارحها بمرضه قبل إتمام الزواج لشدة حبه لها، ولكنها أكملت معه مشواره حتى توفاه الله، وكانت تحملني بأحشائها، ولم توافق على إجهاض نفسها أبدًا، لأنها كانت ترى أنه لا ذنب لي لما تقتلني، وأنا جنين لم يقترف أي ذنب، واحتفظت بي وبجمالها عاد العرسان يتقدمون لها، ولكن منهم من يشترط تركها لي عند جدتي أو أهل والدي؛ فكانت ترفض أو من يشترط أن يتحملها هي فقط، ولا يساهم في تربيتي أو الإنفاق عليّ حتى قابلت بابا صادق، وهو أحد عملاء الشركة التي كانت تعمل بها ولأنه عارف حالته الصحية، صارحها بها ووافقت وظل أمله بالله كبيرًا؛ حتى شفاه الله تمامًا وأنجب سعد وسعيد، كنت أحبهم كثيرًا، وكانوا كلما كبروا أفرح

بهم، وأحبهم أكثر فأنا أكبر منهم بأكثر من عشر سنوات، وماتت أمي ولكن بابا صادق لم يتركني وحدي، وأصر أني أهتم بتعليمي، ويكمل معي مشوار تربيتي، وأظل معززةً، مكرمةً ببيته حتى يأتي أبن الحلال، ورغم انتقاد عائلته لكنه لم يتخلَ عني، فكنت أول من قال له بابا كما يقول، ويصر أنني ابنته، ووقف أمام أهل أمي الذين أرادوا أن يأخذوني منه بحجة أنه عاوز خادمة لأولاده، ولكنه استنكر قولهم هذا وانفصلت أنا عن خالتي، أخوالي، وقلت وقتها وكنت بالجامعة حينئذ أنا قاعدة مع أخواتي وأبي لأني أختهم الكبيرة أرعاهم، بدلًا عن ماما وظللت، ببيت بابا صادق، وزاد تعلق أخواتي بي، كلما كبروا تخرجوا من الجامعة، ووضع الزمن علاماته وبصمات غائرة على بابا صادق بين أمراض الشيخوخة، وتراجع الصحة العامة، ولكنه أصر عليّ أن أتزوج حتى يتمم وعده بتنفيذ وصية أمي له ألا يتركني إلا ببر أمان، وأيد ذلك سعد وسعيد وقالا لي: "كنتي بتتحججي برعايتنا علشان صغار، أحنا كبرنا يا صفا زي ما عودوني ينادوني كده، حبيبتي لازم تعيشي حياتك، وحريتك وسعادتك، وتتأكدي إننا هنكون سعداء إحنا كمان، وكالعادة لازم سعيد يهزر بروحه المرحة دائمًا لما قال: أحسن والله

العظيم ما أتجوز أنا وسعد، وتبقي بقى أنتِ المسئولة. وضحكنا كلنا لأنه كان عارف إن ابن جيرانا يحبني وطلبني، لكن أنا أجلت ولم يتزوج لأنه منتظرني، وفعلًا خلال كام شهر تزوجت منه، وكان زواج سعيد وموفق الحمدلله، عشت سنة من عمري تعادل كل العمر، وبعدها سافر سيناء مع شغله، ولكنه لم يعد فقد استشهد هناك على يد الإرهابيين، وعدت لبيت بابا صادق تاني الذي لم يحتمل أن يراني كسيرة القلب، وتوفاه الله وهو ينادي باسمي صفا، كلما حدثه أحد أو أمسك بيده ينادي باسمي حتى قال له سعد صفا جاية بتشتري لك حاجات، وكانوا مخبيين عليه أن حزني على زوجي تسبب في إجهاض الطفل الذي ببطني، وكنت بالمستشفى بعد العملية، وعدت بعد عدة أيام لأجده يلفظ أنفاسه الأخيرة، وما إن رآني، ابتسم وأسلم الروح لخالقها، تمت مراسم الدفن والعزاء، وبقيت أنا وأخواتي وحدنا بالبيت، مر عامان وتكيف كل منا على الحياة الجديدة، ولم يتجرأ أخواتي على تركي بمفردي، ولكنني كنت أفهم جيدًا، أنني شاركت في تربيتهم، وفهماهم جدًا، جمعتهم يومًا، وقلت لهم: أنني حصلت على ترقية بوظيفتي، ولكن بالقاهرة، ووجدت سكنًا أيضًا محترم جدًا، وقتها كنت

بالفعل طلبت نقلي لفرع البنك بالقاهرة، وقرأت الإعلان، وقلت لهم لازم يشوفوا حياتهم لأني عمري ما هقف في طريقهم أبدًا، عارضوني في بادئ الأمر، ولكن استجابوا لرغبتي، واقتنعوا بكلامي، "وفيق" كان حب عمري، وذكراه كل حياتي، والصور دي لينا مع بعض، وبعض من ذكرياتي مع ماما وبابا صادق، والتوأمان "سعد وسعيد" في مراحل عمرنا، والنهارده ذكرى وفاة "وفيق" علشان كده عملت له الصورة الكبيرة، ورتبت الصور كده على الحائط لتكون معي باستمرار" كانت البسمة تملأ شفتيها، ولكن الدموع تقف بين جفونها على مقلة أدماها، حُبس الدمع الحزين على فراق حبيبها، ثم صممت ودموعنا تسيل على وجوه عُلقت عيونها بتلك الشابة الصابرة الممتحنة حقًا من الله، قطع الصمت صوت "زينب" وهي تقول: "الله يصبرك يا ست صفا"

فقمتُ من مكاني لأحتضنها بحب أمٍ جُرحت لجرح ابنتها، فاذا بها تنهار باكيةً بين يدي قائلةً: "لا تتركيني مثلهم" فاقسمت لها أنني لن أتركها أبدًا وصممت على بقائها معي حتى بعد انتهاء مدة الإيجار، ثم قرأنا للمتوفي الفاتحة، ونزلنا جميعًا إلى الحديقة، وبقينا بها حتى نامت "زينب" وهي جالسة.

تمت

(١٠)

البيانو

انتهت أجازة نصف العام، وعادت الفتيات مرة أخرى للقصر، وقد بدأ توافدهم من الليلة الماضية، وكالعادة "زينب" لازم تتمتم بعدة كلمات وهي بترتب سفرة الفطار، ولكني سمعتها تقول: "أه يا الله رجعنا تاني للشقاوة، والضوضاء وكل واحد طلب غير التاني، الحمدلله لسه فاكرة طلبات فطار كل واحدة فيهن، والله أنا عشرة على عشرة"

لم تنتبه لوجودي ولكني قلت لأنبهها: "تمام كده، اوعي تنسي فطوري أنا"

زينب: "وده معقول يا ست الكل حالًا من عينيا"

نزلت البنات في أناقة وتزين يليق باليوم الأول للفصل الدراسي الثاني، وكل واحدة تقول كلمة بصوت منخفض لزميلتها، وعلت الهمهمات حتى قلت: "وبعدين هتتأخروا"

تحركت كل البنات إلى كليتها، وكنت عارفة طبعًا سبب الهمهمات دي ليه؟ لأنهم لأول مرة بيشوفوا البيانو الأبيض، وقد رفعت عنه الغطاء، وحين عدن بعد الظهر للقصر، أرسلت "زينب" لتأكد عليهن أن هناك من سيشاركنا في العشاء ، أي أنه لا يصح النزول بملابس البيت، وبالفعل جاء موعد العشاء، وظهرت الفتيات واحدة تلو الأخرى بمظهر جميل الحمدلله، تمكنتُ من أن أضع لمسة من جيلي تعتبر نقطة تلاقي مع هذا الجيل وهي؛ احترام المواعيد، وأن لكل مقامٍ مقال، وكنت بانتظارهن ومعي سيدة أنيقة، وتوجهنا جميعًا إلى السفرة، وقلت لهم وأنا أقف برأس الطاولة أقدم لكم د/أميرة صديقة قديمة، وكانت جارتنا زمان، ثم جلسنا جميعًا وتناولنا العشاء، ثم دعوت الجميع إلى الصالون المقابل للبيانو الأبيض، طلبت من أميرة بأشارة من يدي التقدم إلى البيانو؛ فابتسمت و تحركت إلى البيانو، وجلست ثم بدأت بالعزف جذب جمال اللحن الجميع، وتحركت طالبة الكونسير فتوار، وأحضرت آلة الفيولينة الخاصة بها؛ لتشارك أميرة العزف، ونظرت لي طالبة

كلية التربية الموسيقية، فهمت نظرتها فحركت "عيني؟" بالإيجاب فقامت وجلست بجوار أميرة لتشاركها العزف، كان اللحن رائعًا ونغماته تمس القلوب والعقول، وما أن انتهين، سمع الجميع صوت التصفيق أعلى من عدد نزيلات القصر، التفتن جميعًا فوجدن أهلهن وذويهن، كانت فرحة المفاجأة تعلو الوجوه، ولكن الصمت كان هو رد الفعل بلا سببٍ حتى تكلمت قائلةً: إيه رأيكن يا بنات، أنا حبيت أحتفل بوجودكن معي بطريقة تثبت أن الحب الحقيقي مازال بين مشاعرنا راسخٌ، وكي أؤكده للجميع، أميرة أخت زوجي الصغرى، والبيانو تركته والدة زوجي لي؛ لأنني كنت معها بأيامها الأخيرة، كانت أميرة فقط من تعزف عليه قبل هجرتها مع زوجها، واليوم هي معنا بأجازة وعزفت في حب أمها اليوم، أما المكتبة التي تم السؤال عنها تركتها لي السيدة سهى هادي عبد الصبور جارتي في بيتي السابق يا بنات، إحنا كنا ساكنين بالبيت المجاور للفيلا دي من الناحية الشرقية بالدور الأول مكتب أبي المحامي الشهير حينئذ، والدور الثاني شقة والداي أما الدور الثالث شقتي

وشقة أخي الذي سافر وتركها لي أؤجرها، وأحول له مبلغ الإيجار، وكانت من نصيب السيدة سهى هادي عبد الصبور صاحبة الرسالة الموجودة داخل البرواز بمكتبتي الحالية، كنت معها في أيامها الأخيرة؛ أما شجرة الياسمين كما حملت أسراري ،حملت أسرار بعض منكن، وهي هدية زوجي لي يوم انتقلنا لهنا بناءً على رغبة أبيه، إهدائي شيء أحبه يدوم وقد دعوت أهلكن لنتشارك الاحتفال بنجاحكن في الفصل الدراسي الأول، ونجاحكن في تجربة الحياة بعيد عن بيت ماما وبابا، أنا أُهنئ نفسي بكن، وأُهنئ أهلكن بهذا النجاح، أعتقد كده اتأكدت فكرتي، الحب يا بنات صدق وحنان بالإحساس، وليس كلمات تقال فقط نحتاج أن نرفع عنها الغطاء لتلمس نغماتها مشاعرنا، وتُطرب لها قلوبنا، ابتسمت وتراجعت لأتركهن مع الأهل والأحباب، وذهبت للشباك لتُعانق نظراتي شجرة الياسمين مرةً أخرى، لأرى السعادة تملأ عين فضل الجنايني لعودة ابنته لزيارته دون خجل من كونه جنايني، وانتبه إلى لمسة زينب، وعيناها لامعة لما تراه من محبة في عيون

ناردين لمن حولها، وعيون صفاء لأخويها، وعيون سارة للعمة سوسن وابنتها التى تراجعت أخيرًا عن الارتباط بشاب غير مناسب لها الحمدلله ،الحب الصادق الحقيقي يملأ المكان، الحمدلله يازينب لما ينتهي اللقاء، رتبي المكان واطفي النور، وصحي الكل بدري بكرة علشان عند البنات كليات."

زينب: "حاضر ياست الكل، ثم أخذت أميرة؛ لتنام."

تمت

المحتويات

اليوم الأول..... ٥

(١) الدموع الحائرة.....١٣

(٢) نمرودة.....١٩

(٣) ناردين.....٢٩

(٤) احترقت الأوراق.....٣٩

(٥) خدعني أبي.....٦٧

(٦) فضل عويس العيسوي ٧٣

(٧) شجرة الياسمين.....٨١

(٨) العمة سوسن.....٨٧

(٩) صفاء ٩٥

(١٠) البيانو.....١٠١